أثر الفكر العلماني في المجتمع الإسلامي

أ.د/ محمد رشاد عبد العزيز
الأستاذ بجامعة الأزهر
ورئيس قسم أصول الدين بكلية الدراسات الإسلامية
والعربية سابقاً - القاهرة
وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع دسوق سابقاً

دار المحدثين
للبحث العلمي والترجمة والنشر

دار عباد الرحمن

أثر الفكر العلماني

في

المجتمع الإسلامي

تأليف

أ.د/ محمد رشاد عبد العزيز محمود

عميد كلية الدراسات الإسلامية

بدسوق

مكتبة عباد الرحمن

مصر

أثر الفكر العلماني

في

المجتمع الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

رقم الإيداع

١٩٨٨/٢٧٢٥

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أثر الفكر العلماني في المجتمع الإسلامي،
تأليف/ أ.د. محمد رشاد عبد العزيز
- القاهرة: دار المحدثين للبحث العلمي
والترجمة والنشر - ٢٠١٠م

١٣٦ص؛ ٢٤سم

دار المحدثين
للبحث العلمي والترجمة والنشر

الإدارة والمركز الرئيسي: ٧٦أ ش جسر السويس - ميدان الألف مسكن - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٤٩٣١٠٧٤ (٠٠٢٠٢)
رئيس مجلس الإدارة: ٠١٢/٧٧٥٥٩٥١ (٠٠٢)
الإدارة والمبيعات: ٠١١/٤١٥٥٧٧٧ (٠٠٢) ٠١١/٤١٥٥٨٨٨ (٠٠٢)
البريد الالكتروني: muhaddethin@yahoo.com

تصدير

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]

* * *

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

* * *

﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣]

* * *

«قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يبقى منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عضوا عليها بالنواجذ» حديث شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين نبي الرحمة والهدى سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحابته ومن اتبع هداهم إلى يوم الدين.

وبعد...

فقد ظهرت العلمانية في أوروبا وفرضت فكرها على حياة الناس وشئون المجتمعات، وعاشت أوروبا حيرى تحت ظلالها القائمة، فاضطربت الحياة وكثرت الأمراض النفسية والاجتماعية بها، حيث سارت في طريق يستظل بفكر بشري مادي قطع كل علاقة له بالسماء.

وشرعت أوروبا بما جرته عليها العلمانية من شرور ومفاسد، وتذكرت ما تحمله للإسلام وأممه من حقد وعداء، فأرادت أن تصدر هذا الفكر كي يحدث في حياة المسلمين ما أحدثه في أوروبا.

ولقد حقق الغرب ما أراد وتسلل الفكر العلماني إلى حياة الأمة الإسلامية وتسرب إلى التعليم والقضاء والتشريع، وأوجد له من بين المسلمين دعاة يبشرون به وينتصرون له ويملأون وسائل الإعلام بالحديث عنه تمجيدًا له وحثًا على السير تحت لوائه، وأصبح الفصل بين الدين والسياسة في المجتمعات الإسلامية أو في كثير منها حقيقة واقعة.

ولقد خدع كثير من الشباب بهذه الدعايات المضللة، وخاصة وأن القائمين عليها والمنادين بها ذو شهرة عريضة في عالم الصحافة ووسائل الإعلام.

وأمام حملة التزوير الهائلة والدائرة على قدم وساق في ساحتنا الثقافية

والفكرية كان لا بد أن تستنفر الأقلام الإسلامية الصادقة بكافة أساليبها ووسائلها ومستوياتها للجهاد الفكري والعلمي والإعلامي وتتصدى للبهتان انتصارًا لله وللرسول وبيعة مجددة للإسلام العزيز الذي يفرض نفسه بقوة رغم أنف قوى الشر العالمية وما تحمله من باطل وإلحاد كحل وحيد لا بديل له أمام الأمة الإسلامية لإنهاء حقبة التردي العلمانية إلى الأبد.

وها هو قلمي المتواضع يشارك -بجهد المقل- في هذا المعترك الفكري الرهيب بين الإسلام وأعدائه ليفند بعض الأضاليل التي يحمل أعلامها قوى يزعمون أن الفكر العلماني يتفق مع الإسلام، وأن الإسلام نفسه يقر فصل الدين عن الدولة، وأن الإسلام بمنهجه السماوي عاجز عن قيادة المجتمع وتنظيم مسيرة الحياة وبناء الحضارات وصنع التقدم وأنه يرى في المادة الشر والدنس.

ويقرر أن الدنيا لا قيمة لها وأن الفوز والغنيمة في البعد عنها، وأنه استنفد أغراضه في مسابقة، وبالتالي لا يصلح للحياة المعاصرة في نهاية القرن العشرين والإسلام -كما يزعم المغرضون- يفرض الجمود والتخلف على اتباعه ومن ثمة لا بد من تركه -في رأيهم- إن أردنا تقدمًا وحضارة.

إن هذا القلم يضم صوته إلى أصوات هنا وهناك، أصوات أضناها المسير المر منذ عشرات العقود في التيه الذي فرضه غزو علماني مخادع تدرع بكل أساليب القهر الفكري والهيمنة النفسية والتفوق العلمي.

هذه الأصوات لم تخرج من الأعماق عبثًا وإنما شخصت مع صيحاتها الداء وطالبت بالعلاج والدواء وحددت البلسم الشافي في العودة السريعة المخلصة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونفض الغبار الدنس وخلع ثوب العلمانية والقضاء على ما أحدثته -في مجتمعاتنا- من شرور ومفاسدو السير تحت راية الإسلام منهجًا وحكمًا وتشريعًا وخلقًا وسلوكًا ويومها سوف يعود المسلمون

يتربعون -من جديد- على قمة المجد والسؤدد، ويقدمون لأوروبا الحائرة المضطربة طوق النجاة، فهم وحدهم يملكون المنتج الرباني الذي مكن لهم عندما ساروا على هداه فإذا الدنيا بهم سعيدة وإذا هم في الدنيا أسعد الناس وخير الناس.

هذا والله أسأل أن ينفع بهذا البحث طلاب الحقيقة وأن يجعله في ميزان حسناتنا، يوم لا ينفع مال ولا بنون، وأن يوفقنا لخدمة ديننا والبشرية جمعاء.

هذا وبالله التوفيق،

دكتور

محمد رشاد عبد العزيز

القاهرة: في جمادي الآخرة سنة ١٤٠٨هـ

الموافق: فبراير سنة ١٩٨٨م

كيف وصلت العلمانية إلى بلاد الإسلام؟

تمهيد:

إننا أمة الإسلام لنا خصائصنا المميزة ولنا كياننا الحضاري، ولنا تاريخنا العريق الذي يحمل أروع صفحات المجد والعزة والقوة والسيادة والقيادة والريادة.

وإن لنا من الأيادي على البشرية ما لا ينكره إلا جاحد، ولا زالت المبادئ والأصول التي صنعت لنا هذا التاريخ العظيم موجودة بيننا وفي أيدينا، وقادرة بإذن الله تعالى على أن تضعنا في نفس المكان الذي كنا فيه أيام الراشدين وسلفنا الصالح.

بل إننا حين نقف في عالم اليوم مدثرين بهذا الكيان الحضاري، متفاعلين معه مستمسكين به فإننا سنحظى باحترام العالم كله كما كنا يوم سرنا في ظلال ديننا وتحت أعلام إسلامنا ورفعنا رايات قرآننا وهدي نبينا، ويوم إلتزامنا بهذا كله في واقع حياتنا وفي منهج سلوكنا وصنعنا الحياة الرفيعة والكريمة التي تتفق مع منهج الله القويم الذي سرنا على ضوئه ومع الكرامة الإنسانية التي شرفنا الله بها والتي تحققت بأزهى صورة في فترة من فترات التاريخ عندما قاد أسلافنا العظام البشرية كلها نحو الخير والصلاح والفلاح فأعطوا من أنفسهم المثل الأعلى كطليعة لأمة وصفها بارئ السماء والأرض بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لقد عاش العالم الإسلامي ما يقرب من ثلاثة عشر قرنًا -ملتزمًا بمبدأ واحد ومنهج واحد لا يحتكم إلا إليه ولا يعول إلا عليه ولا يسير إلا على نوره، ولا يستفتي في شئون حياته وما بعد حياته- غيره، ولا يفكر في حل مشكلاته إلا

على أساسه وبالاستمداد منه، ذلك المبدأ وهذا النظام هو الإسلام الذي ارتضته هذه الأمة وارتضاه لها رب العالمين جل جلاله وأتم بها عليها نعمته ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

كانت هذه الأمة توقن أن هذا المبدأ الذي اعتنقته وذاك النظام الذي اتبعته هو سر قوتها وينبوع سعادتها، وصانع حضارتها وأمجادها، ورافع ذكرها في العالمين، وأن كل نصر أحرزته وكل خير أدركته إنما هو بسر الاستمساك بعراه والاهتداء بهديه، وأن كل ضرر أصابها وكل ذل ركبها إنما هو بسبب التفريط في هذا المبدأ والبعد عن تعاليمه، وترك هذا النظام ورفض السير تحت لوائه.

لم يفكر حاكم من الحكام طوال هذه القرون الطويلة -أن يرفض الالتزام بمبدأ الإسلام والاحتكام إلى شرعه، وإن بلغ في الاستبداد والطغيان ما بلغ- ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة أن يحكمه يومًا ما نظام غير نظام الإسلام، أو تسود فيه فكرة غير فكرة الإسلام.

كان الاعتزاز بهذا المنهج أو هذا النظام جزءًا من عقيدة كل فرد مسلم بن كان يفخر به ويزهى ويعتقد أنه وحده الحق ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢].

كان يؤمن أن في هذا النظام دواءًا لكل داء، ولكل معضلة علاجًا، ولكل عقدة حلاً، وأن علاجه لا يدانيه علاج آخر يضعه البشر لأنفسهم أو يستمدونه من أديان منسوخة محرفة انقضى زمنها وانتهت مهمتها.

كان كل مسلم يعتقد أن الحل الإسلامي لمشكلات الحياة هو الحل الفذ والحل الناجع والناجح؛ لأنه حل وضعه الله لعباده، ورضيه لهم وأنه -جل جلاله- ربهم وخالقهم وهو -سبحانه- بهم رحيم، كما أنه -جل جلاله- بهم

عليم خبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

كان هذا الاعتقاد هو السائد في العالم الإسلامي حتى كان هذا القرن الأخير والذي قبله(١) حيث جدت أحداث ووقعت أمور، وتغيرت أوضاع أحدثت خللاً في موازين القوى في العالم ليس لصالح المسلمين، وكان من أسبابه أن أهمل المسلمون الأخذ بأسباب القوة المادية والفكرية، وركنوا إلى الدعة والسكون والجمود، وقبلوا المفاهيم الوافدة المغلوطة في حق دينهم ودنياهم، فأصبح الزهد تواكلاً وأصبح القرآن الكريم لا يجاوز حناجرهم، وانفصلوا حضاريًا على عصور مجدهم، وعاشوا في ظلال التخلف والانحطاط والجمود والركود، تخلف في العلم وجمود في التفكير وركود في الفقه والتشريع وقصور في التربية والتوجيه وفساد في الإدارة ونظم الحكم، وانحطاط في التجارة والصناعة، وتأخر في الإنتاج والزراعة، وفوجئ المسلمون في القرن الثامن عشر الميلادي بأنهم آخر السلم الحضاري وبأن عصر الرمح قد ولى إلى الأبد وحل مكانه عصر المدفع والقنبلة، وأخذ المسلمون موقع الدفاع بعد أن كانوا سادة العالم وقادة الأرض ينصرون بالرعب، وأخذوا يبحثون عن حل ينقذهم من هذا التخلف الحضاري وتطلعوا إلى أوروبا حيث النهضة الشامخة والتقدم الحضاري الهائل وتمنى الكثير الوصول إلى أوروبا والأخذ عنها أسس هذا التقدم وهذه الحضارة ولا سيما وقد أخذت أوروبا أسس حضارتنا من قبل لتشيد عليها هذا التقدم العظيم.

---

(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٧٧م، مكتبة وهبة (ص١٥-١٧).

الفصل الأول
الزحف الغربي على العالم الإسلامي وقدوم العلمانية في ركابه

عندما قامت الحروب الصليبية لقهر الإسلام والنيل منه واستئصال شأفته والاستيلاء على خيرات بلاده ولم تستطع أن تحقق هذا الحلم الذي طالما راود أعداء الإسلام كثيرًا.

ورغم الهوس الديني والتعصب الأعمى والتهور الجنوني الذي صاحب هذه الحروب ورغم تتابع الحملات الأوروبية تتابع أمواج البحر الهادر، فإنها في النهاية عجزت عن تحقيق أهدافها، وفشلت فشلاً ذريعًا وعادت من حيث جاءت وهي مجللة بالخزي والعار بعد أن أسر أحد قادتها «لويس التاسع» ووضع في سجن المنصورة، ولم ينعم بنسيم الحرية إلا بعد أن دفع فدية مالية عظيمة.

ومن يومها والحقد الأسود -للإسلام وأهله- يملأ قلب أوروبا، فأخذ قادتها يفكرون في أمر هذا الدين، وأدرك أحدهم «لويس التاسع» وهو في سجنه، بعد طول تفكير وتدبر -أنه لا يمكن قهر المسلمين والقضاء على الإسلام في عهده- على الأقل.

ولذا فقد وضع مخططًا يسير عليه خلفه من بعده لتحقيق هدفهم الأسمى «ضرب الإسلام» فرأى أن تستبدل أوروبا الحملات الصليبية الحربية العسكرية بحملات سلمية تؤدي نفس الغرض، وتعمل على تشكيك المسلمين عن طريق المبشرين والسيطرة على مقدراتهم واقتصادهم.

وأيقن الأوروبيون أنهم لن يستطيعوا السيطرة على هذه البلاد طالما كان

الإسلام قويًا مسيطرًا على نفوس أهله، وطالما كان منهجًا واقعًا في سلوكهم وحياتهم وطريقة تفكيرهم.

إنهم يعلمون أو يجب أن يعلموا أن الإسلام يختلف عن غيره من الأديان السابقة عليه، إنه يختلف عن اليهودية في كونه يخضع معتنقيه جميعًا لله رب العالمين، فليس بين المسلمين وبين الله تعالى عقد خاص أو امتياز خاص بأنهم شعب الله المختار، وهو لا يشارك المسيحية القول بأن «ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

فالإسلام عقيدة وشريعة، دين ودولة، منهج وثقافة وأسلوب حياة.

وهو أمة ودولة لها شريعتها المتكاملة والمتطورة لتدبير شئون هذه الدنيا والتجاوب مع حاجات الإنسان لكي يحيا حياة إنسانية كريمة خاضعة لسيادة الخالق وحده جل جلاله.

هو دين ودنيا، دنيا تعمر وتقوم على ما يبسطه لها الدين من إيمان وتقوى وعمل صالح لخير الفرد والجماعة والمجتمع والأمة الإنسانية جمعاء ومن مبادئ وقوانين، ومن مجتمع متكافل متضامن، ودولة تستمد نظام حكمها من تعاليم السماء.

وهذه الدنيا التي يطالب الدين بأن تعمر أفضل ما يكون العمران، وبأن **تكون الحياة فيها أكرم ما تكون الحياة**، ليست -مع هذا- إلا مقدمة ومعبرًا لحياة أخرى خالدة.

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، «**اعمل**

لدنياك كأنك تعيش أبدًا ولآخرتك كأنك تموت غدًا»[(١)].

إن الإسلام لم يكن مجموعة من الطقوس الدينية وحسب كما هو الشأن في غيره من الأديان.

ولكنه حضارة كاملة يحملها الإسلام حيثما ذهب، حضارة لها لغتها التي لا يصح التعبد بغيرها، ولها قيمها وقوانينها التي تمتد وتتغلل لتشمل سائر احتياجات الأفراد والجماعات في سلوكهم وفي معاملاتهم وفي نشاطهم الفكري والعاطفي على السواء.

ولم يمض على ظهور الإسلام قرن حتى كانت النظم الإسلامية حضارة كاملة، يحملها الإسلام حيثما اتجه، ليس فيها ثغرة أو فجوة.

وقد كان هذا هو السبب في وحدة الحضارة الإسلامية وفي قوة الرابطة التي تجمع أفرادها على هذه الحضارة، والتي تذيب ما بينهم من فوارق الجنس واللغة والمكان، بل تذيب الفوارق الناشئة على اختلاف الزمان لتضم هذه الأمة في وحدة كونية، ترد آخرها إلى أولها، وتجمع أولها، وتجمع حاضرها وماضيها بسبب ثبات القيم الإسلامية وقدرتها على الاستجابة لحاجات الحياة في تقلباتها وتطوراتها، ويسبب ثبات لغة هذا الدين ومرونتها التي مكنت المسلم المعاصر أن يقرأ القرآن الكريم، وأن يقرأ ما كتبه فقهاء المسلمين وأدباؤهم وشعراؤهم وعلماؤهم وفلاسفتهم على امتداد تاريخهم الطويل، دون أن يحس الغربة أو تصده صعوبة في التعبير، أو تغير في الذوق الفني واللغوي.

فكأن القرآن أنزل اليوم، وكأنما بعث شعراء الماضي والغابر وأدباؤه

---

(١) الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٧٩م، دار الشروق (ص١١).

وفلاسفته وعلماؤه، فهم يخاطبون هذا الجيل بما كتبوه وما أنشأوه[١].

ونشأ عن ذلك كله هذه الرابطة الإسلامية القوية التي حار الغربيون في تعليلها وكلت حيلهم وقصرت وسائلهم -قبلاً- عن تفتيتها، فهي وحدة لا وجود لها في غير الإسلام من الأديان... تدعوا تركيا إلى إنشاء سكة حديد الحجاز -قبل الحرب العالمية الأولى- فتنهال التبرعات المالية من شتى بلاد المسلمين من أندونيسيا إلى المراكش.

ويفرض الغربيون على تركيا شروطًا ظالمة بعد الحرب العالمية الأولى فيثور المسلمون في الهند ثورة عنيفة تفزع الإنجليز[٢].

ويموت الزعيم الهندي المسلم مولانا محمد علي في لندن أثناء دفاعه عن الإسلام في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فيدفن في القدس حسب وصيته، وتتوالى الأنباء بمحاولات فرنسا السافرة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية للقضاء على الإسلام وعلى اللغة العربية، وتشجيع القومية البربرية في مراكش فتهتز لذلك بلاد العرب والمسلمين.

وتزداد جرائم إيطاليا الوحشية في ليبيا، فينهال المتطوعون من شتى بلاد المسلمين للمشاركة في الجهاد بأموالهم وأنفسهم، ويسقط عمر المختار في هذا **الجهاد شهيدًا فيرثيه كل شعراء العرب ويبكيه كل المسلمين في أندونيسيا والهند، لذلك كله كانت كراهية الغرب لأمة الإسلام.**

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين، طبعة أولى سنة ١٩٧٩م، المكتب الإسلامي، بيروت (ص٤٢، ٤٣).
(٢) حاضر العالم الإسلامي، السير تيودور موريسون، (١/ ١٦٢).

عداوة أوروبا للإسلام

ومن أجل هذا كله كان عداء أوروبا للإسلام، والخوف من قوة الإسلام ووقوفه حجر عثرة في سبيل أفكارهم وفلسفاتهم والرعب من وحدة المسلمين وجمع صفوفهم واتحاد كلمتهم ووضوح أهدافهم ونبل سائلهم وغاياتهم.

ولقد عبر أعداء الإسلام عن هذا كله بقول «غاردنر»: «إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا»[(١)].

ويقول المستر «بلس»: «إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في إفريقية، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا»[(٢)].

ويقول «لورانس براون»: إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا، أو أمكن أن يصبحوا أيضًا نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير.

ويقول القس «سيمون»: إن الوحدة الإسلامية تجمع أمال الشعوب السمر وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية[(٣)].

ويقول «لورانس براون»: لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة، ولكننا بعد الاختيار لم نجد مبررًا لمثل هذا الخوف، لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصفر «اليابان وتزعمها على الصين» وبالخطر البلشفي، إلا أن هذا

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، د. مصطفى الخالدي، د. عمر فروخ، طبعة خامسة، سنة ١٩٧٣م، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا (ص٣٦).
(٢) الغارة على العالم الإسلامي، تأليف أ. ل شانليه، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد الباقي، مكتبة أسامة بن زيد، بيروت (ص١٥).
(٣) التبشير والاستعماري، للخالدي وفروخ (ص٣٧).

التخويف كله لم يتفق «لم نجده - لم يتحقق» كما تخيلناه، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا.

وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد، ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا، أما الشعوب الصفر فإن هناك دولاً ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها.

ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي(١).

ومن هنا كان اتجاه أوروبا بالقضاء على الإسلام.

ولتسمع الدنيا قاطبة ما جاء في النشيد الإيطالي:

أماه صلي ولا تبكي بل اضحكي وتأملي ... ألا تعلمين ... إن إيطاليا تدعوني؟

أنا ذاهب إلى طرابلس فرحًا وسرورًا لأبذل دمي في سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الإسلامية.

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن.

إن سألك أحد عن عدم حدادك علي فأجيبيه:

إنه مات في محاربة الإسلام.

الطبل يقرع يا أماه ... ألا تسمعين هرج الحرب؟

دعيني أعانقك وأذهب(٢).

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٨٤).

(٢) المجتمع الإسلامي، د. أحمد شلبي، طبعة رابعة، سنة ١٩٧٤م، النهضة المصرية، سلسلة موسوعة الحضارة الإسلامية (٣/ ٢٦٧).

لقد سكتت الصليبية سنة ١٩٧١م عندما قام الضباط الروس والهنود بسلخ جلود مسلمي باكستان وهم أحياء وقتلوا مئات وآلاف من العلماء والفقهاء والدعاة ويهمنا هنا أن نشير إلى تلك الأنشودة التي رددتها الأرساليات المعمدانية عقب تمزق باكستان وولادة بنجلاديش وفيها تقول:

ولدت أمة جديدة اسمها بنغلادش، سنحت فرصة جديدة لتعليم المسلمين الإنجيل، لم يعد الدين الإسلامي دين الدولة، لقد قتل المسلم أخاه المسلم لنعهد إلى أنفسنا بإقامة الصلوات من أجل التبشير، ولنجمع المال من أجل فرصة أتيحت للإنجيل[(١)].

ولتسمع الدنيا أيضًا قول وزير الخارجية الفرنسية «سيد بيدو» ين قام بعض أعضاء البرلمان الفرنسي يطلبون إنهاء الحرب في الشمال الأفريقي لأنها انهكت فرنسا بغير طائل.

إن هذه حرب الهلال والصليب وينبغي أن ينتصر الصليب وذات يوم يقف «اللورد جلادستون» يصرح بمجلس العموم البريطاني وقد أمسك بنسخة من القرآن الكريم ويقول ما دام هذا القرآن موجودًا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان[(٢)] ونحن مع صاحب مجلة العالم الإسلامي إذ يقول:

العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقًا وجنسية هو عدو قاس مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص، فجميع الدول النصرانية

(١) المسلمون في معركة البقاء، د. عبد الحليم عويس، دار الاعتصام (ص٢٤، ٢٥).
(٢) ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، د. عبد الحليم عويس، النادي الأدبي، سنة ١٩٧٩م، الرياض (ص٩٩).

متحدة معًا على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

والروح الصليبية كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرًا في عناصرها متغلغلاً في أحشائها متمشيًا في كل عرق من عروقها، وهي أبدًا ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الديني الممقوت.

وجميع هذه الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عداء الإسلام وروح هذا العداء متمثلة في جهد جميع هذه الشعوب جهدًا خفيًا مستترًا لسحق الإسلام سحقًا[1].

وهكذا جاء الغرب إلى بلاد المسلمين عن طريق الإرساليات وتحت راية العلم والتقدم وهو يحمل في قلبه كل عداوة للإسلام وجاءت معه تجربته في العلمانية وأراد أن يطبقها في البيئة الإسلامية ويقوم بفصل الدين عن الدولة وعن شتى مجالات الحياة.

لقد صمم الغرب الصليبي الزاحف أن يهدم ويدمر فاتجه إلى تدمير العقائد والأفكار وهدم القيم والأخلاق وتحطيم الآداب والتقاليد وبذل الغرب جهدًا كبيرًا في تربية جيل جديد يكون طوع بنانه، ويجعل منه قادة المستقبل، قادة يصطنعهم لنفسه ويصنعهم على عينه ويربيهم في أحضانه ويغذيهم بثقافاته وأفكاره، قادة سقاهم من كأسه ولقنهم من علمه وأسبغ عليهم من رعايته بريقًا ثقافيًا أخاذًا وغرس فيهم الخضوع -عن طواعية وإعجاب- لنظمه وتقاليده

---

(١) يوم الإسلام، للأستاذ أحمد أمين (ص١٠٩، ١١٠)، المجتمع الإسلامي (٣/ ٦٧) د. أحمد شلبي، طبعة رابعة، سنة ١٩٧٤م، مكتبة النهضة المصرية.

والتقديس لمذاهبه وفلسفاته.

إن صناعة هذا الجيل الذي سيقود السفينة فيما بعد ويقبض على زمام التوجيه والتثقيف والتربية والإدارة والسياسة والتشريع كانت أهم ما عني به الزحف الغربي الخبيث.

وكان النجاح في صناعته أعظم نصر حققه في المعركة التي بينه وبين الشرق الإسلامي منذ عهد هرقل ومعركة اليرموك وما بعدها حتى اليوم.

يقول الأستاذ «برناردلويس» رئيس قسم التاريخ بكلية الدراسات الشرقية في جامعة لندن: «لقد مرت فترات من الخطر الشديد كان الإسلام مهددًا فيها في الوقت نفسه من الشرق والغرب، غير أن الإسلام تغلب عليها واجتازها دون أن يتأثر».

جاءه الأتراك غزاة فاتحين فتحولوا إلى مسلمين مؤمنين، وتمثلهم المجتمع الإسلامي الكبير فانصهروا في بوتقته، وكانوا هم أنفسهم أقوى أعمدة الإسلام التي أقامت مجتمعًا كان يفنى اجتماعيًا وسياسيًا.

وبهذه القوة والحيوية تمكن الإسلام من الصمود: بل من دحر غزوات أعدائه الصليبية الذين جاءوه من الغرب.

ثم واجه الإسلام بعد ذلك لطمتين أشد وأقسى وأحدث وأخطر فلقد سحق الشرق الأوسط الإسلامي مرتين، واحتله الغزاة الأجانب الذين سيطروا عليه بقوة السلاح.

وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا تحطيم حضارته الإسلامية القديمة الأصول، فإنهم «لغموا» ثقة الذين صانوا هذه الحضارة بأنفسهم، وهكذا حولوا وجهتهم نحو اتجاهات جديدة.

أولى هاتين اللطمتين كانت الغزو المغولي في أواسط آسيا التي حطمت الخلافة القائمة وأخضعت للمرة الأولى منذ عهد النبوة قلب العالم الإسلام لحكم غير إسلامي.

أما اللطمة الثانية فهي تأثير الغرب الحديث(١)

والذي يبدو أن اللطمة الثانية كانت أقسى وأشد خطرًا من الأولى.

فقد استطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يؤثر في التتار المنتصرين ويجذبهم إلى ساحته، فتقع المعجزة الإسلامية ويدخل التتار في دين الله أفواجًا ويسجل التاريخ -مرة أخرى- اعتناق الغالبين دين المغلوبين.

أما اللطمة الثانية فما زال العالم الإسلامي كله يقاس آلامها ويعاني آثارها الهدامة إلى اليوم.

فقد أخذ الغرب ينفث سمومه المدمرة بين المسلمين مركزًا على هذا التخلف الذي ران على حياتهم معلنًا أن دينهم وتحكيم قرآنهم هو سر هذا التخلف والجمود.

وإذا أرادوا النهضة والتقدم والحضارة المدنية والوصول إلى ما وصل الغرب إليه فعليهم أن ينحو دينهم جانبًا وأن يأخذوا حضارة الغرب وثقافة الغرب وفكر الغرب وعلم الغرب وعلمانية الغرب وتقاليد الغرب وعادات الغرب.

وحمل تلامذتهم وصنائعهم وعملاؤهم هذه الدعوة وألبسوها ثوب الحق والنصح الراشد والإخلاص الأمين، وأخذوا يملأون بها سمع الزمن وينادون

---

(١) الغرب والشرق الأوسط، تعريب د. نبيل صبحي (ص٣٢-٣٣)، وانظر الحلول المستوردة، د. يوسف القرضاوي (ص١٨-١٩).

بفصل الدين عن الدولة وعزله في ساحات دور العبادة فقط ليصبح الدين بين المسلمين -كما في الغرب- علاقة فقط بين المرء وربه وتلاقت الجهود ليصبح هذا في الحياة واقعًا مرًا.

ولقد كان في مقدمة من نادى بالعلمانية في المجتمعات الإسلامية وحمل لواءها وكرث جهده لها بعض النصارى ومن سقط في دعوتهم من المسلمين أيضًا.

وقد أخذ هؤلاء النصارى يشجعون الاتجاهات العلمانية المتحررة ويدعون أولاً إلى ما يسمى بالفكر الحر، الكفر الذي لا يحدد موقف الدين من الموضوعات العلمية والحضارية التي يتكلم فيها ولا يبالي به وهذه هي العلمانية التي تقوم عليها حضارة الغرب في صميمها.

ولقد اعترف «كرومر» في كتابه «مصر الحديثة» بأنهم من الطوائف التي أعانت السياسات الاستعمارية في تحقيق أهدافها، كما أعانوا الخديوي إسماعيل من قبل حين استخدمهم في تنفيذ سياسته التي تقوم على إدخال الحضارة الغربية في مصر[1] ولذلك كانوا أسبق الناس إلى تأسيس الصحف.

بعض هذه الصحف كان يوميًا يحمل أنباء وأحداث العالم والأفكار والمذاهب السياسية مثل صحيفة المقطم وغيرها وبعضها الآخر كان أدبيًا علميًا ينشر أخبار التطورات الحضارية والثقافية الغربية في العلوم والمخترعات وفي المذاهب الاجتماعية وفي الأدب والفلسفة والفن وتمثله صحيفة «المقتطف» التي انتقلت إلى مصر سنة ١٨٧٤م، وكانت قد ظهرت قبل ذلك بثمانية أعوام في بيروت.

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين، الطبعة الثانية (١/ ٢٠٣، ٢٠٤).

وصحيفة الهلال التي أنشئت في مصر سنة ١٨٩٢م وهذا النوع الأخير الذي تمثله هاتان الصحيفتان هو الذي تزعم الدعوة إلى العلمانية والتحررية في الفكر العربي الحديث.

وأهمية هذه الصحف لا ترجع إلى ما كانت تذيعه من آراء فحسب ولكن أهميتها الكبرى ترجع إلى أنها كانت مركز لتنشئة الجيل التالي من الصحفيين على هذه المبادئ العلمانية وهو الجيل الذي ربى بدوره جيلاً آخر، جاءت وتجيء من بعده أجيال على شاكلته فلم تمض فترة وجيزة حتى كانت الصحافة كلها في أيدي العلمانيين كما لاحظ ذلك «جب».

ولقد كان المسيحيون أسبق أبناء العرب اتصالاً بالثقافة الغربية وذلك لانتشار مدارس البعثات التبشيرية، فأخذوا يقرأون كتبًا تصور الثقافة الفرنسية الجديدة التي تمثل علمانية الثورة الفرنسية.

ولقد أثرت هذه الثقافة في نفوس كثير منهم حتى سمعنا في القرن التاسع عشر عن رجل مثل «ميخائيل مشاقة» يحدثنا في كتابه «الجواب على اقتراح الأحباب» أن الشكوك بدأت تساوره في عقائده الدينية وأنه وجد في مجتمعه كثيرًا من الناس الذين يفكرون على شاكلته.

ونشط هؤلاء الناس وسعوا إلى جعل لبنان على وجه الخصوص دولة علمانية على الطراز الأوروبي وساعدهم على ذلك انتشار الثقافات الغربية العلمانية وتدخل الدول الغربية من ناحية وسوء تطبيق المبادئ الإسلامية في أواخر أيام الدولة العثمانية من ناحية أخرى[(١)].

---

(١) الإسلام والحضارات الغربية، د. محمد محمد حسين (ص٥٥) وما بعدها.

أفكار الغرب الهدامة

وأخذ الغرب يعمل بكل طاقته على أن يبث فكره الهدام ويقول فلسفته المادية المنحرفة في ثوب براق لأبناء المسلمين الذين يذهبون إليه في بعثات لتحصيل العلوم الحديثة؛ ويعمل -بكل جهد- على أن يشككهم في قيمهم وفي عقائدهم وتراثهم، ويحاول إغراءهم بالمال والنساء كي يقضي على البقية الباقية لديهم من خلق أو دين.

ولا غرو بعد ذلك إذا رأينا هؤلاء المبعوثين إلى الغرب يذهبون إليه مسلمين شرقيين ويعودون -إلا من عصم الله- متغربين علمانيين لا دينيين لم يغيروا أسماءهم ولا دينهم الرسمي، ولكنهم غيروا أفكارهم وقيمهم ونظرتهم إلى الدين وإلى الحياة وإلى الناس وإلى الماضي وإلى الحاضر وإلى النظم والشرائع وإلى الآداب والتقاليد.

وبدأ ذلك واضحًا في سلوكهم وأخلاقهم وعلاقتهم وفيما يكتبون وينتجون في ميدان الفكر والثقافة والتوجيه[١].

فقد تشربوا من الغرب كل ما يشوه حقائق الإسلام وتاريخ الإسلام وحضارة الإسلام.

ولنأخذ مثلاً في هذا المجال كي يقوم الغرب بتشويه صورة الإسلام أمام كل الناس.

فقد جاء في كتاب «البحث عن الدين الحقيقي» للمنسنيور كولي[٢] عن

---

(١) الحلول المستوردة، د. يوسف القرضاوي (ص٢٠).

(٢) صدر هذا الكتاب عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريس، طبعة عام ١٩٢٨م، وهو عبارة عن محاضرات دينية وقد نال هذا الكتاب رضا البابا «ليون الثالث عشر».

الإسلام ما يلي(١):

الإسلام في القرن السابع الميلادي برز في الشرق عدو جديد ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب.

لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم باللذات.

وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وأفريقية وأسبانية فريسة له، حتى إن إيطالية هددها بالخطر، وتناول الاجتياح نصف فرنسة، لقد أصيبت المدنية.

ولكن هياج هؤلاء الأشياع -المسلمين- تناول في الأكثر كلاب النصارى...

ولكن انظر ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سد في وجه سير الإسلام المنتصر عند بواتيه ٧٥٢م.

ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريبًا (١٠٩٩-١٢٥٤م) في سبيل الدين فتدجج أوروبا بالسلاح وتنجي النصرانية.

وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الإنجيل على القرآن، وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق السهلة(٢).

وهناك كتاب آخر -وما أكثر الكتب في هذا المجال- اسمه «تاريخ فرنسة»

(١) (ص٢٢) من الكتاب المذكور، وانظر: التبشير والاستعمار، للخالدي وفروخ، فسوف تجد الكثير في هذا المجال (ص٧٢-٧٣).

(٢) لا تزال أمثال هذه الكتب تدرس في مدارس الإرساليات الأجنبية، وفي كل حين تضطر وزارة المعارف اللبنانية إلى منع كتاب أو أكثر. انظر: المصدر السابق (ص٧٣).

تأليف هـ غيومان وف لوستير جاء فيه:

إن محمد مؤسس دين المسلمين، قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى.

إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة، وقالوا للناس: «اسلموا أو تموتوا» بينما أتباع المسيح: ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم.

ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين(١).

بمثل هذا الحقد الأسود تقدم الكتب لأبنائنا هنا وهناك، وبمثل هذا الحقد الدفين تشوه الحقائق وتقلب رأسًا على عقب.

ومع هذا الحقد الواضح تضيع الأمانة العلمية، ويذهب الحق ليحل مكانه الباطل وتتلاشى الحقائق لتوضع مكانها الأباطيل، وذلك لإبعاد أبنائنا عن ديننا وعقيدتنا وقيمنا ولتحقيق هدفهم في علمنة حياتنا وهذا ما يهدف إليه أعداء الإسلام.

ولقد سيطرت النظريات الغربية الثلاث: الفرنسية والإنجليزية والأمريكية على فكر شبابنا، وفرضت أسلوبها وتصورها للحياة والإنسان والكون، وتجاهلت تمامًا أي اعتبار للعربي أو للمسلم، وإنما حاولت أن تشكل هذا الدارس وكأنه غريب تمامًا عن بيئته وثقافته، وكانت ظاهرة الانفصال عن الدين والأخلاق هي من أبرز معالم المناهج الدراسية.

وإذا كان الغرب قد أقام نظريته في التربية والتعليم على أساس إبعاد الدين

---

(١) (ص٨٠، ٨١) من الكتاب المذكور «تاريخ فرنسة» نقلاً عن التبشير والاستعمار (ص٧٥).

عن التربية وفق تجربته مع المسيحية الغربية، فإن الأمر كان مختلفًا مع الإسلام فهو ليس دينًا فحسب، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع أيضًا.

وهو الدين الذي لم يقف موقف الصدام مع معطيات العلم أو حركة التقدم فلظروف خاصة بالغرب قد انفصلت مناهج التربية والتعليم عن الدين في أوروبا.

ولكن هذه الظروف لم تواجهها المجتمعات العربية الإسلامية، ولم تكن مناهج التربية والتعليم الإسلامية قادرة على أن تنفصل عن الإسلام الذي هو بمثابة الأساس المكين لكل مقومات المجتمع والعلم[1].

ولقد أثر هذا الغزو الفكري الفلسفي والثقافي على حياتنا العلمية فرأينا معظم كتبنا المدرسية في كثير من البلاد الإسلامية مترجمة بالنص أو بالمعنى عن المراجع والثقافات الغربية.

فتاريخنا ينقله المؤلفون عن مراجع المؤرخين الأجانب، وكتب العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وتشريح لجسم الإنسان مترجمة عن الأبحاث التي قام بها علماء الغرب، وكذلك سائر العلوم الإنسانية من تربية وفلسفة وعلم نفس وعلم اجتماع وباقي العلوم الأخرى من جيولوجيا وجغرافيا إلخ إلخ.

ومن المعروف أن العلوم الغربية تنطلق من تصور خاطئ للوجود كله يغاير الأسس الفكرية الإسلامية، فالمنطلقات العقائدية المشتركة بين كل فروع المعرفة والثقافة الغربية هي أن الوجود كله في زعمهم منحصر في الطبيعة والإنسان، والإنسان جزء من الطبيعة ونوع من أنواعها.

---

(١) التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام، أنور الجندي، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٥م، جار الكتاب اللبناني، بيروت.

والطبيعة وجدت هكذا بنفسها وكذلك سننها أو قوانينها -حسب رأيهم- مقدرة بنفسها من غير مقدر لها، والعقل عندهم وحده طريق معرفة الحقائق وليس ثمة طريق آخر، وليت المثل الأخلاقية والقيم والمفاهيم الحقوقية إلا وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية نشأت وتطورت فهي ليست ثابتة، والإنسان نفسه إنما هو حيوان اجتماعي مفكر فحسب وليست النفس الإنسانية، إلا مجموعة من الغرائز، وليس في هذه الفلسفة الغربية أو التصور الوجودي للكون -كما نرى- مكان للإله وصلته بالإنسان وبالكون ونظامه السببي ولا بالوحي والنبوات ولا للجزاء والحياة الآخرة الخالدة ولا لسائر المغيبات(١).

يقول جورج سول في كتابه «المذاهب الاقتصادي الكبرى»(٢): وصار لزامًا على الذين نبذوا الإيمان كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة.

أما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان -وإن لم يكن في الواقع كما هو أغلبهم- فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة.

وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شيء له وجود فحسب، وإنما هو شيء ينبغي أن يطاع، وصارت مخالفتها دليلاً على نقص التقوى والأخلاق.

ولقد جاء في كتاب «المادية التاريخية»(٣):

إن العلم إذ يكشف عن الصلات الطبيعية بين ظواهر الطبيعة يطرد في تطور

---

(١) مجلة البعث الإسلامي، الأستاذ محمد المبارك، عدد (١٠) مجلد (٢١)، (ص٣٣) تصدر بالهند ندوة العلماء.

(٢) ترجمة الدكتور راشد البدوي (ص٥٠، ٥١) من الترجمة العربية.

(٣) تأليف ف. كيلي م كوفا للزون، ترجمة أحمد داود، ومراجعة د. بدر الدين السباعي، طبع دار الجماهير بدمشق، ١٩٧٠م، (ص٥٠٠).

الإله من الطبيعة ويرفض المثالية ويؤيد صحة النظرة المادية إلى العالم، والعلم يتفق مع المادية في بحثه عن الحقيقة في الحياة ذاتها، وفي الطبيعة ويفسر ظواهر الطبيعة والمجتمع معتمدًا على القوانين الموضوعيَّة.

وهذا ما يدل على أن العلم الحقيقي ذو طابع مادي إن العلم مادي بطبيعته وبجوهره، والمثالية غريبة عنه وعدوة له.

وعندما اكتشف «نيوتن» قانون السببية وهو القانون الذي يفسر ظواهر الطبيعة ويردها إلى أسبابها الظاهرة.

وقد اتخذت أوروبا هذا القانون كذريعة لنفي الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة أي نفي الأسباب الغيبية.

يقول «راندال»:

إنه لأقرب إلى الطبيعة والمعقول أن تشتق من صور المادة كل شيء موجود؛ لأن كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها ونختبر كل لحظة نتائجها بأنفسنا ونراها فاعلة متحركة، تنقل الحركة وتولد القوة دون انقطاع من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة ولكائن روحي لا يستطيع أن يخرج من طبيعته ما ليس هو بذاته، كائن يعجز بحكم الجوهر المنسوب إليه أن يفعل أي شيء، أو أن يحرك أي شيء[١].

ويقول الدكتور البهي:

ومعنى تقدير أوروبا للطبيعة على هذا النحو أن الطبيعة في نظرها هي التي تنقش الحقيقة في ذهن الإنسان، والإنسان -لهذا- لا يملي عليه من خارج

(١) تكوين العقل الحديث (١/ ٤٣٩).

الطبيعة، أي لا يملي عليه مما وراءها كما لا يملي عليه من ذاته الخاصة، إذ ما يأتي من وراء الطبيعة خداع للحقيقة وليس حقيقة، وكذا ما يصوره العقل من نفسه، وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة أيضًا، وبناء على ذلك يكون الدين وهو وحي -أي ما بعد الطبيعة- خداع[١].

وهكذا كانت تصورات أوروبا كلها مأخوذة من إيمانها المطلق بالطبيعة وهذا ما لا يعترف به دين الإسلام الحنيف.

بل إن البحث في الطبيعة وما بها من ظواهر ومظاهر لا يحث الإسلام عليه إلا ليؤمن الإنسان بخالق الطبيعة وكل شيء عليها ويعلم قدرته ورحمته وعلمه المحيط بكل شيء.

إن الغزو الفكري واكتساح نظام التعليم الغربي للبلاد الإسلامية أدى إلى عملية تهديم لمبادئ الإسلام وجميع المثل العليا والقيم التي بها يمكن أن يتقدم الإنسان ويسمو في حضارته في تقدم حقيقي مستمر.

لقد جرف التيار الفكري الغربي الشباب الإسلامي في البلاد العربية والعجمية -الذين كانوا زينة أمتهم وزهرة بلادهم- وغير عقليتهم إلى حد أن عقولهم أصبحت لا تستطيع أن تستسيغ الإسلام الصحيح وأصبحوا لا يندمجون في مجتمعاتهم الإسلامية ويصبحون جزاء منه وهذا ما يشير إليه «إقبال» بقوله: «إن سحر الإفرنج أو فنه أذاب الصخور وأسالها ماء».

إن الإلحاح على كون الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة والحكم، والمعاملة مع الإسلام كمعاملة الكنائس المسيحية، ونظرية فصل الدين عن الدولة والاعتقاد بأن الدين عائق في طريق النهضة والاكتشافات والاختراعات،

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي (ص٢٩٨، ٢٩٩).

وإقامة علماء الإسلام في صف ممثلي الكنيسة المسيحية، الذين كانوا يملكون السلطة المطلقة في العصور المتوسطة.

وإعطاء المرأة حق الإسهام في جميع أمور الحياة، وخروجها مع الرجل متكاتفة متساوية، وجعل الحجاب -في أي شكل كان- تذكارًا لنظام الحريم القديم في الشرق، وعلامة استبداد الرجل بالمرأة، والقضاء عليه كخطوة أولى نحو الإصلاح والتقدم، والاعتقاد بأن قانون الوراثة والنكاح والطلاق اجتهاد فقهاء المسلمين في العصور الوسطى ونتيجة طبيعية للمجتمع البدائي المحدود الذي وجد في القرنين السابع والثامن الميلاديين، وإدخال التغيير والإصلاحات في المجتمع وصوغه في قالب المجتمع الغربي بتطبيق المبادئ الغربية ومعاييرها عليه، فريضة الساعة وواجب الوقت وحتمية التقدم وصرف النظر عن الربا والخمر والميسر.

وعن العلاقات الجنسية المنطلقة والإيمان بالقومية، والاندفاع نحو إحياء الحضارة القديمة واللغات العتيقة والإيمان بأهمية الخط اللاتيني وفوائده.

كل هذه النزعات والاتجاهات الهدامة، وما أشبهها التي تحتل محل الحقائق الثابتة لدى الجيل المثقف، وتد من أمارات التنور والنهضة والتقدم.

وكل ذلك نتيجة نظام التعليم الغربي وبيئته الفكرية وجوه العلمي والعقلي وتراثه التاريخي ليس غير[(١)].

وفي ظل استراتيجية مرنة دائمًا قابلة للتلون والتريث خاضعة لمناهج علمية ونفسية يسير التبشير والغزو الفكري مع الأمة العربية والإسلامية، خطوة خطوة يتعهد خطاها بالإفساد، وطريقها بالمعوقات، وفكرها بالتمويه وهو دائمًا معها.

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، للندوي، (ص١٧٢-١٧٣).

فلئن خرجت جيوش استعماره، فإنه يترك -نيابة عنه- جيشًا من لون آخر يعمل ويتحرك[١].

إن الغرب يحاول الآن التمهيد لشيء آخر واضح... إنه التبعية الكاملة لمناهج وتصورات أوروبا، ومسخ مقومات الشعب المسلم الحضارية والقضاء على فكرة إحياء الحضارة الإسلامية.

لكن الله غالب على أمره ولو كره الكافرون....

---

(١) ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، د. عبد الحليم عويس (ص١١١، ١١٢).

الثمار المرة

لقد خدع كثير من أبناء أمتنا بثقافة الغرب وفلسفة الغرب وحضارته، وتشبعوا بروحه، فإذا بهم يتنفسون برئة الغرب ويفكرون بعقله، ويرددون -في بلدهم- كلمات أساتذتهم المستشرقين وينشرون أفكارهم ويشرحون نظرياتهم في إيمان عميق وحماسة زائدة وكأنهم صدى لهؤلاء المستشرقين.

بل ربما كانوا أكثر حماسة منهم لآرائهم، فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق في الغرب بحثًا ولا يعرف له رأيًا أو نظرية إلا ونجد -في المسلمين- من يتبنى هذه النظرية، ويدافع عن هذا الرأي ويدعو -بني جنسه- الأخذ به في بلاغة ولباقة.

وذلك مثل بشرية القرآن الكريم وفصل الدين عن السياسة وأن الإسلام دين لا دولة والدعوة إلى العلمانية، والشك في المصادر العربية الأولى، والشك في قيمة الحديث العلمية وإنكار مكانته وحجته ومكانة السنة في الإسلام والدعوة إلى القومية العربية والاشتراكية المادية والشيوعية الماركسية، والفلسفات المعاصرة من الماسونية والوجودية وغير ذلك كثير وكثير.

إننا نرى ظلال الفكر الغربي وأرقة ممددة على العقول الإسلامية والأقلام العربية مسيطرة عليها كسيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة منعكسة فيها انعكاس الشمس في المرآة الوضيئة.

ولقد شهد بهذا كله مستشرق عرف الشرق الإسلامي وعرف تياراته الفكرية معرفة دقيقة إنه هـ أ. ر. جب حيث يقول في كتابه «إلى أين يتجه الإسلام؟!»:

وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية.

علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثير بالأساليب الغربية بعد أن تهضم وتصبح جزءًا حقيقيًا من كيان الدولة الإسلامية فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها[١].

وكان أثر ذلك كله الثمار المرة الآتية:

أولاً: علمانية كمال أتاتورك:

إن أول من رفع لواء العلمانية -في بلاد الإسلام- كنظرية ثم عمل على تطبيقها كنظام دولة هو «كمال أتاتورك» الذي حول تركيا إلى دولة علمانية.

فألغى الخلافة الإسلامية وحذف من الدستور عبارة «الإسلام دين الدولة» وأحدث الفصل بين الدين والسياسة، وقرر أن الدين قضية شخصية، فلكل فرد أن يختار له دينًا ويدين به من غير أن يكون له دخل في السياسة والإدارة وألغى المحاكم الشرعية وقانون الشريعة الإسلامية.

وقرر العمل بالقانون المدني السويسري والقانون الجنائي الإيطالي، والقانون التجاري الألماني، وأدخل الأحوال الشخصية في القانون الأوروبي، ومنع التعليم الديني وعطل مراكزه ومنع الحجاب، وقرر السفور والتعليم المختلط، وألغى الحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية، ومنع الآذان بالعربية وجعله بالتركية.

وبعبارة موجزة قد حطم الأساس الديني كله، وغير وجهة نظر الشعب التركي والحكومة التركية[٢] وسن قانونًا حرم بموجبه لبس الطربوش

(١) نقلاً عن كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، للدكتور محمد محمد حسين، وانظر: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للندوي (ص١١، ١٢).
(٢) المصدر السابق (ص٦٠).

وبدله بالقبعة[(١)].

وحظر على رجال الدين ارتداء لباسهم القديم، وساوى بين الرجل والمرأة في الحقوق السياسية والاجتماعية والميراث، وحمل الشعب على تغيير أسمائهم العربية واستبدالها بألقاب تركية الأصل، وبدأ بنفسه حيث فسخ مصطفى كمال وتسمى «أتاتورك»[(٢)]، وقدم مشروعًا[(٣)] تحولت به الدولة التركية إلى دولة علمانية.

وقال في تبرير ذلك: إن الإمبراطورية العثمانية قامت على أسس الإسلام.

إن الإسلام بطبيعته ووضعه عربي وتصوراته عربية وهو ينظم الحياة -من ولادة الإنسان إلى وفاته- ويصوغها صياغة خاصة ويخنق الطموح في نفوس أتباعه، ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام، والدولة لا تزال في خطر ما دام الإسلام دينها الرسمي[(٤)].

وهكذا نجح أتاتورك في تحطيم حصون الإسلام في تركيا وخلع رداءه وقضى على نظامه وأقصى العنصر الإسلامي والعربي من الحياة التركية.

علمانية أتاتورك في ميزان النقد:

لقد نجح كمال أتاتورك نجاحًا كبيرًا في إقصاء العنصر الإسلامي والعربي -كما سبق- من الحياة التركية، وأجبر الشعب على أن يعيش نمط الحياة الغربية،

---

(١) الرجل الصنم، تأليف ضابط تركي سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٧م (ص٣١٤).

(٢) أي أبا الترك، انظر: العرب والترك، محمد بيهم.

(٣) في ٣ مارس سنة ١٩٢٤م.

(٤) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، للندوي (ص٦٠-٦١).

وفرض التغريب الكامل بالإرهاب والقوة والتعذيب.

فهل نجحت الدولة التركية العلمانية في خلق مجتمع قوي متماسك؟ وفي خلق دولة شامخة يرهبها العدو ويخطب ودها الصديق؟

كلا وألف كلا...

فقد خسرت تركيا الحياة الإسلامية ولم تزل عالة على الغرب، فلا هي احتفظت بتراثها الروحي وأصالته، ولا أحرزت تقدمًا ماديًا في عالم المخترعات والتقدم التكنولوجي، أو الفلسفة الهادفة البناءة.

يقول صاحب كتاب «من هنا نعلم»(١):

بدأت في تركيا حركة رجعية بالية لإحياء الجنسية الطورانية انتهت بمحو الخلافة الإسلامية، وفصل الدين عن الدولة فماذا أفاد الأتراك من ذلك؟

لقد كانوا باسم الإسلام وفي ظله يخيفون جارتهم روسيا وظلوا عدة قرون يديرون رحى الحرب في أرض روسيا نفسها!!

أما اليوم فتركيا دويلة تتسول سلامها من أمريكا وتعيش على هامش الديمقراطية المفككة، وتقنع مرغوبة في أقل من ١٠٪ من حدودها الأولى، فماذا أفادها كفرها.

ويقول الدكتور محمد البهي عن الحركة الكمالية في تركيا فكريًا:

إن أي مفكر يقدر قيمة الفكر، لا يصف هذه الحركة التركية إلا بأنها تقليد في غير وعي للغربيين وأنا أقصد في «غير وعي» لأن الباعث عليها الرغبة في أن

---

(١) الشيخ محمد الغزالي (ص٧١)، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، الطبعة السادسة، بدون تاريخ.

تكون تركية جزءًا من أوروبا لا من آسيا، وأن يكون للأتراك طابع الغربيين -لا الشرقيين- فيما هو ممدوح أو مذموم، كما طلب لمصر يومًا ما صاحب كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» فهي حركة اندفاعية لا حركة مئتدة تتخير وتقدر في تخيرها الاحتفاظ بشخصية الأمة أو الجماعة.

اليابان جددت حقًا، لأن حركتها التجديدية قامت على التخير دون الاندفاع.

اليابان ظلت شرقية، ومع ذلك تفوقت على الغرب في مجال الصناعة وقبل ذلك في المجتمع وتماسكه كمجتمع له شخصية بارزة.

أما تركيا فليس لحركتها طابع معروف حتى اليوم، فلا هي بالشرقية ولا هي بالغربية، يجعلها الغرب غربية في اللحظة التي يريد أن يحرضها على الإمعان في البعد عن الإسلام والجماعات الإسلامية، وفي مقدمة هذه الجماعات الشعوب العربية؛ لأنه نزل بلغتها القرآن، ويجعلها شرقية يوم يتحدث عن حضارتها المعاصرة بأنها حضارة مستعارة من الغرب ليس لها فيه إلا التقليد الأعمى.

من السهل على الفرد -وكذا على الجماعة- أن يهدم ويلغى، ولكن ليس من السهل أن يبنى، وأشد عسرًا أن يكون أصيلاً في البناء.

إن تركيا الحديثة مظهر تجديدها إلغاء الدين وفقدان شخصيتها وتبعيتها تبعية مطلقة في السياسة والتوجيه والاقتصاد للغرب الصليبي(١).

إن حركة أتاتورك حركة فاشلة خاسرة، وهي في الوقت ذاته حركة ضالة منحرفة، سواء قسناها بمقياس الدين الإسلامي أم بمقياس الوطنية أم بمقياس

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث، طبعة ثانية، عام ١٩٧٥م، د. محمد البهي، مكتبة وهبة (ص٤٣٦).

الديمقراطية والحرية أم بمقياس الفكرة والحضارة إنها بمقياس الدين حركة ردة صريحة تنكرت لعقيدة الأمة وشريعتها التي آمنت بها وتغلغلت في حياتها وزادت عنها قرونًا، لقد استخفت بحرمات الإسلام وأنكرت أحكامه القطعية الضرورية فليس لها وصف إلا الردة(١)، ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وها هو محمد إقبال يسجل في «جاويد تامة» انتقاد الأمير سعيد حليم باشا للثورة التي قام بها أتاتورك في تركيا ويذكر سطحيتها وتفاهتها وأن زعيمها وقائدها محروم من كل إبداع وابتكار، ومن كل أصالة في التصميم والتخطيط، وأنه ليس إلا مقلدًا أعمى لأوروبا فيقول:

إن كمال الذي تغني بالتجديد في حياة تركيا ودعًا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم، ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدد ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوروبا أصنام جديدة.

إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة، إنما هي كلها أغان مرددة معادة تتغنى بها أوروبا من زمان، إن الجديد عنده هو القديم الأوروبي الذي أكل عليه الدهر وشرب، ليس في صدره جديد وليس في ضميره عالم حديث، فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوروبي المعاصر، إنه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة ونقد شخصيته(٢).

---

(١) الحلول المستوردة، د. يوسف القرضاوي (ص١٢٤).
(٢) جاويد نامة (ص٧٢)، نقلاً عن الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للندوي (ص٩١).

ماذا أفاد أتاتورك أو أبو الأتراك كما كان يحب أن ينادى بذلك من السير في ركاب أوروبا، لقد حذف الكلمة القائلة في الدستور التركي القديم بأن دين الدولة الإسلام واستبدل معها القانون المدني السويسري بالقانون المأخوذ من فقه الإسلام المدون في «مجلة الأحكام العدلية» وأباح زواج المسلمات من غير المسلمين، فلم يؤل أي جهد في تغيير ظاهر الدولة العثمانية الإسلامية وباطنها[١] ومع ذلك فلم يأخذ غير الخسران في الدنيا والآخرة بارتكابه هذه الجريمة النكراء ولقد كان ديوثًا عندما أباح للكافر أن يضم المرأة المسلمة بين جناحيه وعندما أنكر صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان وعندما اعترف بأن الإسلام معطل للطاقات.

يقول الإمام الكوثري: دلت نصوص الكتاب والسنة على أن دين الإسلام جامع لمصلحتي الدنيا والآخرة ولأحكامهما دلالة واضحة لا ارتياب فيها، فتكون محاولة فصل الدين عن الدولة كفرًا صارخًا.

ثم بين حكم المطالب بهذا المبدأ والمؤيد له والعامل من أجله فيعده: «مبتورًا من جسم جماعة المسلمين وشخصًا منفصلاً عن عقيدة أهل الإسلام، فلا تصح مناكحته ولا تحل ذبيحته لأنه ليس من المسلمين ولا من أهل الكتاب»[٢].

ويقول الإمام محمد الخضر حسين:

فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ولا يقدم عليه المسلمون

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين (٤/ ٢٩٣، ٢٩٤)، طبعة ثانية، سنة ١٩٨١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصطفى صبري.

(٢) الإمام الكوثري: أحمد خيري (ص٣٦٨)، نقلاً عن مؤامرة فصل الدين عن الدولة، محمد كاظم حبيب، طبعة أولى، سنة ١٩٧٤م، دار الإيمان، بيروت (ص٧١).

إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين[١].

ويرد الشيخ الخضر على هؤلاء الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة فيقول:

وفي القرآن أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات كأحكام البيع والرهن والربا والدين والشهادة وأحكام الزواج والطلاق واللعان والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث وأحكام القصاص والدية وقطع يد السارق وجلد الزاني وقاذف المحصنات وجزاء الساعي في الأرض فسادًا، بل في القرآن آيات حربية.

وهذا يدلك على أن من يدعو إلى فصل الدين عن السياسة إنما يتصور دينًا آخر وسماه الإسلام.

ويعدد الشيخ كثرة من الأدلة من حياة رسول الإسلام ﷺ والسلف الصالح يؤكد فيها بما لا مجال -معها- للريب على اتصال الدين الإسلامي بالسياسة والدولة ثم يقول:

أراد الحجاج أن يأخذ رجلاً بجريمة بعض أقاربه فذكره الرجل بقوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨].

فيتركه ولم يخطر على باله وهو ذلك الطاغية أن يقول:

ما تلوته دين وما سأفعله سياسة، ويستطرد الشيخ قائلاً: ليس في الإسلام سلطة دينية إلا على معنى أن الأمير ينفذ أحكام الشريعة المفصلة في الكتاب

---

(١) المصدر السابق (ص٣).

والسنة أو المندرجة في الأصول المأخوذة منها[١].

ولا حياة للإسلام ولا وزن لتعبداته إذا لم يكن حكم الإسلام مطبقًا وواقعًا ملموسًا؛ لأن الله جل جلاله لم يرسل رسوله الكريم بتشريعات العبادة فحسب بل أرسله بالنظام الأكبر الشامل، المنظم للحياة كافة، حتى تكون الحياة البشرية جديرة بالإنسان الذي اصطفاه ربه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وسخر له الكون كله أرضه وسماواته.

وهل يمكن لرسالة عامة للدين والدنيا أن تقوم في ظل أنظمة وقوانين وشرائع تضاد الفكرة الأساسية لتلك الرسالة، وتتنافر مع ما أمرت وفرضت وسنت؟!!

وهل يجوز أن يحرم الله شيئًا فنحله -كما فعل أتاتورك- ويقرر حدودًا فنهملها ويفرض شرائع فننبذها ثم نزعم بعد ذلك بأننا مسلمون وأننا أمة القرآن، وأننا على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين؟!!

إن تحطيم فكرة الحكم الإسلامي هو تحطيم كامل لكل مقدسات الإسلام وانهيار شامل لحياتنا ورسالتنا كمسلمين لنا كتاب ولنا شريعة ولنا عقيدة.

إن الإسلام وحدة متماسكة وأنظمة يؤيد بعضها بعضًا وعقائد متساندة ترتكز كل عقيدة على أخواتها وانتزاع أي لبنة من الصرح الشامخ يزلزل أسسه ويحطم بنيانه.

---

(١) مجلة نور الإسلام القاهرية، الجزء الخامس، المجلد الثاني، عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، نقلاً عن مؤامرة فصل الدين عن الدولة، محمد كاظم (ص١٩، ٢٠)، ووسائل الإصلاح، للشيخ محمد خضر حسين (ص١٦٥) طبعة ١٣٩٣م.

لقد كان رسول الإسلام ﷺ كثيرًا ما يحذر من هذا الموقف الذي يقفه المسلمون اليوم حيث يقول: «**لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة فأولهن نقضًا الحكم وآخرهن الصلاة**» فلا وجود للصلاة ولا وجود للإسلام إذا نقض الحكم الإسلامي.

وإذا فقد العالم الإسلامي شخصيته المميزة ودولته القائمة وشريعته الحاكمة.

إن التشريع في كل أمة هو روحها وقلبها ومكون فكرها ومجدد أخلاقها ومنظم شئونها والمهيمن على توجيهاتها:

والحكم في كل شعب هو مظهر السيادة ومجلى القوة للفكرة التي يمثلها الشعب والعقيدة التي يدين بها، وللغاية التي يحيا من أجلها، ولن تتكون الأمم الإسلامية ولن تقوم رسالة القرآن كاملة إلا إذا وجدت الحكومة الإسلامية التي تستظل بالقرآن وتحمل اللواء الذي رفعه المؤمنون في وجه الجاهلية العالمية كافة أيًا كان سكانها من هذا الكوكب(١).

إن صيحة «أتاتورك» التي تنادي بأن شريعة الله التي ارتضاها لعباده وفرضها لا تلائم الحضارة ولا تتمشى مع التطور وتضيق بحاجيات الحياة للإنسان المتعلم الراقي، وخنق الطموح في نفوس أتباعه، لهي صيحة من صميم الجاهلية التي تحارب الإسلام وتتربص به الدوائر.

---

(١) دولة القرآن، طه عبد القادر سرور، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة (ص٥١، ٥٢).

وإذا كانت شريعة الإسلام فاسدة فعباداته كذلك، وحتى لو سلمت العبادات ففساد الجزء يهدم الكل وظهور العجز في جزء يزيل القداسة الربانية عن المجموع.

ولذلك فقد ذهب أتاتورك وقد تحمل وزر هذا العمل ووزر الأجيال القادمة والمتابعة إلى يوم القيامة.

ثانيًا: الإسلام وأصول الحكم:

وكان من الثمار المرة أيضًا ظهور كتاب الشيخ علي عبد الرازق عام ١٩٢٥م، بعنوان «الإسلام وأصول الحكم»[(١)].

وقد حاول فيه مؤلفه أن يقول: إن الحكم ليس من طبيعة الإسلام فهو دين

---

(١) لقد أثبت الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس بأن الشيخ علي عبد الرازق ليس له في هذا الكتاب المذكور إلا وضع اسمه عليه فقط وقد استدل على ذلك بما يأتي:

أولاً: كان علي عبد الرازق وأسرته من أعضاء حزب الأمة الموالي للإنجليز، الكاره للخلافة الإسلامية، وهدف الكتاب هو مهاجمة هذه الخلافة.

ثانيًا: أسلوب هذا الكتاب لا يصدر إلا من عدو عنيد للإسلام، ولا يعقل أن يكون مؤلفه مسلمًا.

ثالثًا: قول الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية في كتابه «حقيقة الإسلام وأصول الحكم» الذي رد به على الشيخ علي عبد الرازق ما نصه: «لأنه علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له فيه إلا وضع اسمه فقط ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار وألبسوه ثوب الخزي والعار إلى يوم القيامة».

رابعًا: أسلوب الكتاب يرجح أن يكون للمستشرق الإنجليزي المستر «مرجوليوث» اليهودي الذي كان يعمل أستاذًا للغة العربية في بريطانيا أو غيره من المتمرسين في الكتابة ضد الإسلام.

خامسًا: خمول الشيخ علي عبد الرازق وعدم ضلاعته في التأليف حتى يصدر عنه هذا الكتاب.

سادسًا: الأدلة الكثيرة ولغة الحديث التي يتكلم بها المؤلف وكأنه ليس من المسلمين أو ممن ينتمي إلى الإسلام وغير ذلك كثير وكثير. انظر: الإسلام والخلافة في العصر الحديث، نقد كتاب الإسلام وأصل الحكم، للدكتور محمد ضياء الدين الريس، مكتبة دار التراث، بالقاهرة، سنة ١٩٧٢م، طبعة ثانية (ص٢٠٧) وما بعدها، و(ص١٧٢).

سابعًا: يقول الدكتور ممدوح حقي في كتابه «بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام» (ص٦٠) طبعة بيروت، سنة ١٩٧٨م، بأنه رجع إلى كتاب للخلافة للسير توماس أرنولد، فوجد أنه لا فرق بين رأى الشيخ علي عبد الرازق ورأي توماس الإنجليزي.

لا علاقة له البتة بالسياسة والحكم، أو بالتعبير في شيء وأن الإسلام الحديث علماني وبث فيه من الآراء التي تعمل على هدم كثير من مقومات الإسلام والمجتمع الإسلامي.

كما أنكر القضاء كله، وشوه -بالباطل- طبيعة الإسلام وحاول أن يبطل جانبه العملي، بل إن الشيخ علي عبد الرازق[1] مس مقام الرسول الكريم ﷺ فظل يتساءل هل كان النبي رسولاً أو كان رسولاً وملكًا؟

وادعى أن جهاده لم يكن جزءًا من رسالته ووجه طعنًا إلى الصحابة رضوان الله عليهم وإلى خليفتي الرسول الصديق والفاروق -وهم المثل العليا للمسلمين- بأن ادعى بأنهم كانوا يعملون من أجل الدنيا والفتح والاستعمار لا من أجل الدين، وحاول أن يجعل بين الدين والدنيا عداوة شديدة.

فهما -في رأيه- ضدان لا يجتمعان وعدوان لا يلتقيان، والدين الإسلامي خاصة لم يأت من أجل الدنيا، وليس له تشريع يتصل بالدنيا، والله جل جلاله لا يعبأ بأمر الدنيا، فهي أهون عليه من أن يبعث لها دينًا أو يرسل إليها رسولاً، وإنما يتركها -في رأيه- لعقولنا وشهواتنا.

وحيث إن أحوال المجتمع والسياسة والحكومة والخلافة من شئون الدنيا **فالإسلام كدين ليس له بها علاقة.**

لقد قرر فصل الدين عن الدنيا فصلاً تامًا، فجعل الدين يضاد الدنيا مضادة شاملة، انظر إليه وهم يتحدث عن هذا كله فيقول عن الخلافة:

إن الخلافة في الإسلام لم ترتكز إلا على أساس القوة الرهيبة، وأن تلك القوة

---

(١) من المعروف أن هذا الرجل كان خريج الأزهر وأن الأزهر الشريف أدانه وطرده من زمرته.

كانت إلا في النادر -قوة مادية مسلحة-[١] «وإذ كان في الحياة الدنيا شيء يدفع المرء إلى الاستبداد والظلم ويسهل عليه العدوان والبغي فذلك هو مقام الخليفة»[٢].

والواقع أن صلاح المسلمين في دنياهم لا يتوقف على شيء من ذلك، فليس بنا حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا ولا لأمور دنيانا ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين وينبوع شر وفساد[٣].

واستمع إليه وهو يتكلم عن حكومة الرسول فيشبعها غمزًا ولمزًا وطعنًا وتجرؤًا على أحكام الرسول العظيم ﷺ إذ يقول:

إذا كان رسول الله ﷺ قد أسس دولة سياسية، أو شرع في تأسيسها، فلماذا خلت دولته من كثير من أركان الدولة ودعائم الحكم؟

ولماذا لم يعرف نظامه في تعيين القضاة والولاة؟ ولماذا لم يتحدث إلى رعيته في نظام الملك وفي قواعد الشورى، ولماذا ترك العلماء في حيرة واضطراب من أمر النظام الحكومي في زمانه؟ ولماذا؟ ولماذا؟ ثم يفصح عن نيته ويقول:

إن محمدًا ﷺ ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة دولة[٤].

ويقول بعد أن تكلم عن السياسة والدولة وتدبير المصالح للناس.

---

(١) الإسلام وأصول الحكم، للشيخ علي عبد الرازق (ص٢٨).
(٢) المصدر السابق (ص٢٩).
(٣) المصدر نفسه (ص٥٧).
(٤) الإسلام وأصول الحكم (ص٩٤).

ذلك من أغراض الدنيا -والدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات- أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول وحبانا من عواطف وشهوات، وعلمنا من أسماء ومسميات، هي أهون عند الله تعالى من أن يبعث لها رسولاً، وأهون عند رسل الله تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها[1].

---

(١) المصدر المذكور (ص٧٨).

دعوة علي عبد الرازق في ميزان النقد

لقد أنكر علي عبد الرازق في كتابه -الإسلام وأصول الحكم- صلة الأديان بالدنيا من أولها إلى آخرها وفي جميع غاياتها وأغراضها.

وماذا يبقى للدين -بعد ذلك- إلا أن يكون عبادة يؤديها أفراد وينتهي الأمر.

إنه يقول على الإسلام بالذات: إن كل ما جاء به الإسلام فإنما هو شرع ديني خالص لله تعالى وسيان أن يكون منه للبشر مصلحة مدنية أم لا، فذلك ما لا ينظر الشرع السماوي إليه، ولا ينظر إليه الرسول ﷺ[(١)].

ويقول: «الإسلام دعوة دينية إلى الله تعالى»[(٢)] ثم يزعم أن الدين بحثوا في معنى الرسالة أغفلوا دائمًا أن يعتبروا التنفيذ جزءًا من حقيقة الرسالة إلا ابن خلدون[(٣)].

فالإسلام -في رأيه- كان دعوة فقط دون تنفيذ، وما جدوى الرسالة عندك أيها الشيخ المستشرق إن لم تُنفذ؟

وها هي آيات من القرآن الكريم تحث النبي ﷺ على التنفيذ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم

(١) الإسلام وأصول الحكم (ص٨٥).
(٢) المصدر السابق (٧٦).
(٣) راجع المصدر المذكور (ص٥٦).

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وآيات كثيرة غير ذلك وكلها تأمر رسول الإسلام بالتنفيذ وأن الإسلام دعوة وتطبيق ورسالة وحكم ودين ودولة.

فكيف يزعم هذا الشيخ بأنه لا تنفيذ للرسالة؟ ولماذا يدعو إلى أن تكون الشريعة معطلة؟ والقرآن الكريم صريح جدًا في تكليف النبي بتنفيذ شريعة الله وأوامر الله والعمل والجهاد والحكم، بل إن القرآن الكريم كله أحكام وأوامر من الله بالتنفيذ للنبي وأمته(١).

لقد غزا الرسول ﷺ بعد هجرته إلى يثرب ٢٧ غزوة؛ وأرسل ٤٩ سرية وبعث ٢٤ بعثًا، فمجموع المعارك التي خاضها الرسول -ومن اتبعه- خلال اثنتي عشرة سنة فقط ٩١ معركة.

ولقد سجلتها بالأرقام -كما ترى لا بالحروف- لينفذ إليها البصر بسرعة ويحكم حسباتها بلمحة ويقدر الجهد الجبار الذي بذله صاحب الرسالة عليه السلام في إرساء قواعد الدولة واهتمامه بتصريف أمورها وحل مشاكلها الحاضرة ووضع الأسس العامة ليسير عليها أتباعه إيمانًا منه بأن المسلمين لا بد سائرون على طريقة بعد أن وطَّد لهم الأساس وأحكم البيان، وصاغهم صياغة جديدة نبيلة مثالية.

---

(١) الإسلام والخلافة في العصر الحديث، د. ضياء الدين الريس (ص٢٧٥).

وكيف نسي هذا الشيخ أن النبي ﷺ وهو يأتيه وحي السماء كان بالمحراب إمامًا وكان في الميدان قائدًا وكان في الأسواق تاجرًا وكان في خصومات الناس قاضيًا وهو القائل:

«إنكم تختصون إليَّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا يقبله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها»(١).

وكذلك بعث عليًا وخالدًا ومعاذًا إلى جهات متعددة للغرض نفسه.

لقد تحدث القرآن عن العدل وتحدث عن الشورى وتحدث عن العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

فالذي يقطع العلاقة بين الإسلام وبين الدولة يكون صاحب هوى ميئوس الفكر سقيم الفهم مضطرب العقل، حيث اعتبر الإسلام كغيره من الأديان التي شوهت بيد الإنسان.

إننا لا نوافق على ما ذهب إليه هذا الكاتب من الفصل بين الدين والدنيا ولا نوافق على رأيه في احتقار الدنيا، ذلكم أن الدنيا في الإسلام خير وبركة ونعمة وهي أساس الأخرى وطريقها، وقد خلق الله الناس والحياة فيها فهو جل جلاله يهتم بصلاحها وصلاح الناس، وحفظ الحياة وتقدم العمران بل جعل الله الناس خلفاءه في الأرض.

---

(١) البخاري في كتاب الشهادات (٣/ ١٧).

ولذا فقد أرسل الله الأنبياء والرسل لهداية الناس وتحقيق كل هذه الأغراض الصالحة، وكلها تتمثل بكمالها في الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ خاتم الرسل ليكمل به دين الله، وليحقق صلاح العمران، وتتم سعادة الناس في الدنيا والآخرة.

وهذا ما يقوله علماء الإسلام ها هو ابن خلدون يقول في مقدمته:

«واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطيّة الآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول، وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله، إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقًا».

وقرر الإمام الغزالي أن نظام الدين لا يحصل عليه إلا بنظام الدنيا.

وشرح الإمام الرازي في تفسيره الكبير للقرآن الكريم ما هو المعنى المراد من الإشارات في بعض الآيات إلى الدنيا محددًا ومؤكدًا حتى لا يفهم الجهلاء مثل الكاتب المشار إليه ومن تبعه غير ذلك.

قال الإمام الرازي وقد سبق بذلك فلاسفة العصر الحديث:

«اعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب»، وبرهن على ذلك بكثير من الأدلة منها: استخلاف الله فيها للنوع الإنساني كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، وأن الحياة خلقه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [الملك: ٢].

ولأنه لا يفعل العبث كما قال جل شأنه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] ولأن الحياة نعمة بل هي أصل لجميع النعم وعظم الله المنة بخلق الحياة ثم قال الإمام:

بل المراد أن من صرف هذه الحياة لا إلى طاعة الله بل إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى فذلك هو المذموم.

إن دعوة القرآن إلى أن الدنيا دار اختبار وابتلاء وأنها مرحلة أولى تسبق مرحلة الآخرة، لا تعني إطلاقًا شرية هذه الدنيا ولا الانصراف عن متعها وزينتها، ومن ثم لا تعني أن الاشتغال بها أمر قليل الشأن في ذاته، وأقل شأنًا من الاشتغال بدين الله.

إن أبا بكر ﷺ -وله حظه في الإسلام وفي الدعوة إلى دين الله- كان يباشر أمرًا من أمور الدنيا، في التجارة حتى بعد أن ولي أمر الخلافة أراد الاستمرار في النزول إلى الأسواق ومباشرة تجارته، حتى لقيه عمر ﷺ ونصحه بالإعراض عن ذلك طالما هو في شغل بأمر المسلمين ثم جمع الصحابة وسألهم أن يقرروا له في بيت المال ما يسد حاجته، فقرروا له ما يكفيه وأسرته.

فلو أن التجارة مثلاً كشأن من شئون الدنيا شر، أو بخس أو في نظر الإسلام لما أقبل عليها مسلم له قدم راسخة في الإسلام كأبي بكر ﷺ، واتخذ منها مصدر رزقه ومعيشة أسرته، فضلاً عن أن يرغب في الاستمرار في ممارستها بعد أن ولي أمر المسلمين، بل إن القرآن الكريم يطلب صراحة ألا يكون أداء العبادة عاملاً على تجاهل الدنيا وعدم الحركة فيها لتحصيل الرزق، كما لا يكون السعي في الدنيا شاغلاً عن أداء العبادة فيقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ٩-١٠].

فأداء العبادة له منزلته في الإسلام، وأداء السعي في تحصيل متع الحياة له منزلته في الإسلام كذلك؛ لأنه إذا كانت العبادة تحمل على استقامة الأسلوب في

تحصيل متع الحياة فإن تحصيل هذه المتع بسعي الإنسان يعين بدوره على الاستمرار في العبادة.

والشيء الذي يحول الإسلام دونه عند تحصيل متع الحياة الدنيا هو الإسراف في الاستمتاع بها لأنه يترتب عليه: إما منع الآخرين من حقهم في الحياة، وإما الإساءة إلى الذات نفسها بكثرة ما تستمتع به يقول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

فينهى عن المبالغة في الاستمتاع بالأكل والشرب أي بمتع الحياة الدنيا ولكنه لا ينهى عن تحصيلها والاستمتاع بها، وتقدير الدنيا في -نظر الإسلام- على أن متعها أمر مرغوب فيه لا يجعل شئونها في سياسة الدولة أمرًا بخسًا[١].

فالدنيا إذن ليست منفصلة عن الآخرة ولا ضدها، والدين ليس منفصلاً عن الدنيا ولا ضدها، والله تعالى يرعى شئون خلقه ويريد هدايتهم وصلاحهم في جميع أحوالهم -أفرادًا أو مجتمعين- والروح والمادة ممتزجان ومتآلفان وليس منفصلين ولا متضادين، وإلا فإن انفصال أحدهما عن الآخر معناه الفناء.

الإسلام إذن نظام كامل أو فلسفة شاملة كاملة تجمع بين الدين والدنيا والدين والدولة وشريعة تنظم شئون الدنيا والآخرة وهذه حقيقة وهذا ما بينه القرآن الكريم ودعا إليه الرسول العظيم ﷺ ونفذه وهذا ما وعاه الصحابة ونفذوه، وهذا هو ما قرره كل علماء الإسلام وما سار عليه واعتقده المسلمون، بل إن الباحثين عن غير المسلمين فهموا ذلك أيضًا به فمثلاً يقول الدكتور

---

(١) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، الدكتور محمد البهي (ص٣٤) وما بعدها بتصرف.

«شاخت» الألماني بعد تخصصه في شريعة الإسلام:

على أن الإسلام يعني أكثر من دين إنه يمثل أيضًا نظريات قانونية وسياسية وجملة القول إنه نظام كامل من الحضارة يشمل الدين والدولة معًا.

ويقول «نللينو» الإيطالي:

لقد أسس محمد في وقت واحد دينًا ودولة وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته(١).

ويقول «مريسون»:

إن الحق الذي لا يماري فيه أحد أن الإسلام أكثر من معتقد ودين إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز، وهو حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها.

ويقول «إميل درمنجم»:

الإسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية لا صلة لها بالمادة ولا بالحياة، وإنما الإسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح والدنيا والآخرة، جسم وروح دولة ودين وحياة وغيب، والإسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيد لنظريات الاجتماع الحديثة بل لأنه يدفع الإنسان دومًا إلى الأمام.

ويقول «جورج روبير»:

إن الإسلام ليس دينًا فحسب، إنه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ وأنه

---

(١) الإسلام والخلافة في العصر الحديث، الدكتور محمد ضياء الدين الريس، طبعة ثانية، سنة ١٩٧٢م، دار التراث، القاهرة (ص٢٨) وما بعدها.

أيضًا وبصفة خاصة مجتمع روحي واجتماعي ونظام سياسي وأسلوب للعيش ولقد أعطى الإسلام للدنيا حقها وللآخرة حقها فلا نرهق الروح على حساب البدن ولا زهق البدن على حساب الروح، فالازدواج كامل بين الروحية والمادية في شخصية المسلم.

ويقول «ريتشارد هارتمان»: قلما نجد بين الأديان الكثيرة دينًا ينفذ إلى حياة معتنقيه كلها فردية كانت أم جماعية مثل الإسلام، وذلك أنه جمع السلطة الدينية في شكل الدولة السياسي ووقى خطر التفرقة بين أمور الدين وأمور الدولة وقد ألبس الدين ثوب التشريع والفقه(١).

وهكذا يقرر المنصفون من غير المسلمين أن الإسلام دين ودولة مادة وروح حضارة كاملة شاملة، بينما نجد الشيخ المسلم يزعم أن الإسلام دعوة دينية فقط، لا صلة لها بالدولة أو بالدنيا أو بالحياة، وهذا زعم خطير جدًا يمهد للفكرة التي يحاول الغرب أن يبثها في عقول المسلمين ليفرق ما بين الدين والدولة.

إن دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده جميعًا يرفض عزله عن نظام الحياة في الدولة، وذلك لأن السياسة والحكم والقوانين لا يمكن فصلها عن شريعة الله لأنها تستمد منها مفاهيمها؛ لأن الحديث السائد في مجتمع من المجتمعات يحدد أساليب هذه المجالات ومضامينها بالضرورة.

فلا يمكن فصل الفلسفة عن الدين وفيها تفكير في قضايا الوجود الكبرى ومنشأ البشرية والمصير والهدف ومعنى الوجود، ولا يمكن فصل الآداب والفنون عن الدين وهي تتخذ من رؤية الإنسان للحياة وقيمه وأخلاقياته وصراعاته النفسية مضامين لها وكلها متصل بالدين.

---

(١) سقوط العلمانية، للأستاذ/ أنور الجندي، (ص١٩٥) وما بعدها.

ولا يمكن فصل الاقتصاد عن الدين وفيه قضايا حياة الإنسان نفسه وتحريره من ذل الحاجة وعبودية من يملكون مصادر الرزق وفيه الحل لقضايا التكافل وتحقق كرامة الإنسان في الدنيا.

ولا يمكن فصل التعليم عن الدين وهو الذي يبني شخصية الفرد وسلوكياته ونظرته للحياة لأن الدين نفسه يتجسد في هذه الأشياء.

ولا يمكن فصل الدين عن الحياة الاجتماعية لأن الدين ما جاء إلا لسياسة وصياغة العلاقات الاجتماعية وتحديد صلة الإنسان بأخيه الإنسان، كذلك لا يمكن فصل الدين عن ميدان القانون والتشريع.

فما جاء الدين إلا وبه قوانين لتشكيل الفردية والاجتماعية وتحديد مفاهيم الحل والحرمة واختيار الالتزام بطاعة أوامر الله جل جلاله.

ومن هنا فقد أخطأ كل من صور له هواه أو وسوس له شيطانه أن فصل الدين عن الدولة هو الطريق السليم لنهضة الأمة وتحقيق حضارتها المنشودة[١].

وليس من هدفنا أن نسترسل في الرد عليه وإنما فقط أردنا أن نوضح كثرة الأباطيل التي جاء بها الكاتب في كتابه، والتي لم تخدم إلا أعداء الإسلام الذين فرحوا بهذا الكتاب وقاموا بنشره على أوسع نطاق واستغلوه في الاستدلال به على ما أرادوا الوصول إليه من إقامة العلمانية في بلاد المسلمين جميعًا[٢]، إدعاء منهم أن الإسلام مثل المسيحية لا شأن له بأمور الحياة والناس وهذا زعم باطل

---

(١) ورقة ثانية في الرد على العلمانية، د. محمد يحيى، طبعة أولى، الزهراء للإسلام العربي بتصرف (ص٣٤-٣٥).

(٢) عند صدور هذا الكتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق ثار حماة الدين، علماء الأزهر الشريف، فأمرت الحكومة المصرية بجمع الكتاب وحرقه، ثم سحبت من علي عبد الرازق شهادته العلمية.

وادعاء كاذب لا أساس له من الصحة فليس الإسلام كالمسيحية في شيء بل الإسلام هو الدين الذي اختتم الله به سلسلة الأديان السماوية ورضيه للناس جميعًا.

ومن هنا فقد جاء نظامًا كاملاً يصلح حياة الناس ويبين لهم طريق المدنية والحضارة ويأخذ بيد الإنسان -بالإيمان والعلم والعمل والفكر والنظر- إلى قمة الرقي والتقدم.

إن الإسلام يختلف عن المسيحية في كثير من الأسس والاتجاهات، فقد حرفت المسيحية بيد الأهواء البشرية بينما تكفل بارئ السماء والأرض جل جلاله بحفظ دين الإسلام بحفظ دستوره الخالد القرآن الكريم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ولقد كانت المسيحية دعوة خاصة لهداية خراف بني إسرائيل الضالة بينما جاء الإسلام للبشرية جمعاء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٧]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

هذا ويمكن أن نبين أهم أوجه الاختلاف بين المسيحية والإسلام في النقاط التالية:

الفرق بين الإسلام والمسيحية

لا نريد أن نطيل في بيان الفروق بين المسيحية والإسلام وإنما فقط نضع أمام الدنيا قاطبة الحقائق الآتية:

أولاً: إن موقف المسيحية في أصلها وفي حياة المسيح وتلاميذه من بعده حتى القرون الثلاثة التالية، موقف المسالم للدولة لا تصطدم معها في تشريع ولا تفرض عليها رجال دين يتحكمون في شئونها، وإن موقف الإسلام موقف المؤيد للدولة المتعاون معها في تحقيق أهدافها وأدائها رسالتها، بل إن العرب لم يكن لهم دولة في الجاهلية: فأسسها لهم الإسلام.

ثانيًا: إن المناداة بفصل الدين عن الدولة في تاريخ المسيحية عود بها إلى وضعها الأول الصحيح وإن انحرافها عن هذا المبدأ جر عليها وعلى شعوبها البلاء والشقاء.

أما في الإسلام فإن المناداة بفصل الدين عن الدولة انحراف به عن وضعه الصحيح، وإن وقوع هذا الفصل في بعض مراحل التاريخ هو الذي جر على الإسلام وعلى المسلمين البلاء والشقاء.

ثالثًا: إن فصل الدين عن الدولة في تاريخ أوروبا، كان في عصر نهضتها الكبرى، ولقد سارت من بعده حرة طليقة تسيطر على شئون العالم وتتحكم في مصائره، أما في الإسلام فإن أزهى عصور حضارته وأحفلها بالقوة والمجد وأجداها على الإنسانية هي العصور التي قامت فيها دولته على مبادئ شريعته، وما حدث الجفاء بين الدين والدولة إلا في عصور الضعف والجمود والفوضى.

رابعًا: إن ربط الدولة بالدين -في أوروبا- أدى إلى اضطهاد الفكر وخنق الحريات وقيام الحروب الدينية المفجعة، وخضوع الناس لكابوس الخرافة

والجهالة والبؤس، أما ربط الدولة بالدين -في عصور الإسلام الزاهرة- فقد أدى إلى انطلاق الفكر وحماية الحريات الدينية وإشاعة السلام بين أبناء الديانات وتحرير الناس من أوهام الخرافات والشعوذة وتحقيق الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية بين أبناء الشعوب.

خامسًا: إن علاقة الدين بالدولة -في تاريخ القرون الوسطى- جعل من رجال الدين طبقة تمثل السيطرة والاستعلاء والاضطهاد والتعصب، ولكن علاقة الدين والدولة -في عصور الإسلام الزاهرة- لم يخلق مثل هذه الطبقة إذ الإسلام نفسه لا يعترف بوجودها فكيف يعترف بحقها في السيطرة والاستعلاء[1]؟

إن الله جل جلاله يقول لرسوله الكريم: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢] والرسول ﷺ كان يقول بأمر من ربه تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وأبو بكر خليفة رسول الله ﷺ كان يقول: «أيها الناس وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أخطأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» فطاعة خليفة الرسول مشروطة بطاعة الله جل جلاله وتنفيذ منهجه وتطبيق شريعته، شريعة الإسلام السمحاء.

فالإسلام ليس فيه رجال دين أو كهنوت بالمعنى الكنسي وليس هناك من رجاله من يمنح غفرانًا أو يهب جنة أو يعطي نفسه عصمة أو سلطة ليست له أو ليست من حقه، بل الناس كل الناس في دين الإسلام سواسية لا تفاضل بينهم إلا

---

(١) الدين والدولة في الإسلام، الدكتور مصطفى السباعي (ص٧٦-٧٨).

بالتقوى والعمل الصالح ونشر الخير بين الناس جميعًا.

ولقد صنع السلف الصالح حضارة سامقة -عندما ساروا على هدي دينهم وسنة نبيهم- حضارة سعدت بها الإنسانية جمعاء ومنحهم الله -بفضل طاعته وتطبيق شريعته- عزًا بعد ذل وقوة بعد ضعف، وأمنًا بعد خوف، ووحدة بعد تفرق وتمزق ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وعندما ترك المسلمون هدي ربهم واتباع رسولهم وأخذوا يهرولون وراء قوانين أوروبا وتشريع الغرب أو الشرق عادوا إلى ضعف بعد قوة وتفرق بعد وحدة، وأصبحوا فريسة سهلة لأعدائهم وأعداء دينهم، ورضوا بالذل والهوان بعد رغد عيش وكبير مجد وعزة.

يقول العلامة «ليوبو لد قابس» أو محمد أسد:

إن الحياة الإسلامية في الواقع تظهر على كل حال في أيامنا الحاضرة بعيدة جدًا عن الإمكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الإسلام من ذلك مثلاً أن كل ما كان في الإسلام تقدمًا وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخيًا وركودًا، وكل ما كان في الإسلام من قبل كرمًا وإيثارًا أصبح اليوم بين المسلمين ضيقًا في النظر وحبًا للحياة الهينة ثم يقول:

إن ثمة سببًا واحدًا فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين وذلك السبب يرجع إلى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئًا فشيئًا يتركون اتباع روح التعاليم الإسلامية فنتج من هذا أن الإسلام ظل بعد ذلك موجودًا لكنه كان جسدًا بلا روح، ثم إن العنصر الإسلامي الذي خلق قوة العالم الإسلامي من قبل

هو المسئول عن ضعف المسلمين، فإن المجتمع الإسلامي بنى من أوله على أسس دينية وضعف هذا الأساس قاد بالضرورة إلى ضعف البناء الثقافي فيه وربما كان سببًا لاضمحلاله بالكلية.

وكنت كلما زدت فهمًا لتعاليم الإسلام من ناحيتها الذاتية وعظم ناحيتها العلمية ازددت رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقًا تامًا على الحياة الحقيقية[١].

أجل ترك المسلمون العمل بشريعة الإسلام فأصبحوا أهون الناس على الناس وها هو الأستاذ أبو الأعلى المودودي بين لنا متى بدأ المسلمون يتفلتون من تطبيق شريعتهم فيقول:

إن أول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية هو الهند، وكانت هذه الشريعة هي قانون الدولة العام في الهند حتى بعد أن قام فيها الحكم الإنجليزي، فكانت يد السارق تقطع إلى سنة ١٧٩١م، ولكن الإنجليز أخذوا بعد ذلك يلغون القانون الإسلامي آنا بعد آن ويستبدلون به القوانين الوضعية حتى تم إلغاؤها في أواسط القرن التاسع عشر ولم يبق منه تحت النفاذ إلا ما كان يتعلق بمسائل النكاح والطلاق وغيرهما على اعتباره قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية.

ثم على منوال الحكومة الإنجليزية في الهند نسجت الأقطار التي كانت حكومات المسلمين أنفسهم قائمة فيها فصاغت جميع ولايات الهند المسلمة قوانينها العامة شيئًا فشيئًا حسب قالب القانون الجاري في الهند البريطانية وضيقت نطاق الشريعة إلى قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية[٢].

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد (ص١١).

(٢) القانون الإسلامي وطرق تنفيذه هامش، المودودي (ص٤-١١).

هذه بعض الفروق بين الإسلام والمسيحية أو بعبارة أدق بعض الحقائق نضعها أمام الدنيا قاطبة حتى يعلم أعداء الإسلام بأنه الدين الوحيد الذي نظم الحياة والحكم وشمل الدين والدولة هو الإسلام الحنيف الذي جاء بشريعة وأمر تنفيذها وتحكيم تعاليمها في حياة البشر ولو كره ذلك الشيخ علي عبد الرازق ومن يسير على شاكلته.

ثالثًا: دعوة الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»

وكان من الثمار المرة كذلك دعوة الدكتور طه حسين إلى تقليد الغرب واتباع مناهجه في الخير والشر وذلك في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر».

فالدكتور طه حسين يرى في هذا الكتاب أن سبيل النهضة «واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا ونكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب»(١)، «وأن نشعر الأوروبي بأننا نرى الأشياء كما يراها ونقوم الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها»(٢).

ويزعم في هذا الكتاب أن المسلمين أدركوا أصلاً من أصول الحياة الحديثة وهو «أن السياسة شيء والدين شيء آخر، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على شيء آخر».

وهذا التصور هو الذي تقوم عليه الحياة الحديثة في أوروبا، فقد تخففت أوروبا من أعباء القرون الوسطى وأقامت سياستها على المنافع الزمانية لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس(٣).

ويشيد الدكتور طه حسين بثقافة الغرب عامة وثقافة فرنسا خاصة ويوضح إعجابه الشديد بهذا الفكر وتلك الثقافة بل وبالحياة الفرنسية في كل

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر، د. طه حسين، فقرة (٤١-٥٩) من طبعة المعارف سنة ١٩٤٢م.

(٢) المصدر السابق (ص٤٤).

(٣) مستقبل الثقافة (ص١٧، ١٨).

صورها إذ يقول:

كل شيء في فرنسا يعجبني ويرضيني خير فرنسا وشرها، حلو فرنسا ومرها، نعيم فرنسا وبؤسها، كل ذلك يروقني ويلذني، وتطمئن إليه نفسي اطمئنانًا غريبًا.

إني لأحس نفسي تسبق القطار إلى باريس على سرعة القطار، ثم يصف نساء فرنسا بقوله:

أما النساء فلهن منطق معقول: هن متجردات بالنهار على الساحل متجردات في الليل إذا أقبلن إلى الكازينو، ولكنهن لا يظهرن من أجسامهن ما يظهرن في النهار وإنما يظهرن في النهار نصفًا وفي الليل نصفًا آخر، للنهار الأعجاز وللليل الصدور[(١)].

ويحاول الدكتور طه حسين -خدمة لأهداف الغرب- أن يهدم اللغة العربية -لغة القرآن الكريم- وذلك بالدعوة إلى اللهجات العامية المحلية تحت الدعوة إلى تطوير اللغة العربية فيقول:

وفي الأرض أمم متدينة -كما يقولون- وليست أقل منا إيثارًا لدينها ولا احتفاظًا به ولا حرصًا عليه ولكنها تقبل في غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة إلى تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها، ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة، وتؤدي بها صلواتها.

فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لفريق من النصارى، واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث والسريانية هي اللغة

(١) طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، أنور الجندي، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٧م، (ص٥٠).

الدينية لفريق رابع[١].

وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هي اللغة العربية، ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيمانًا بالإسلام وإكبارًا له وزيادًا عنه وحرصًا عليه[٢].

وينبغي لقارئ هذا النص أن لا ينسى الشعار الذي اتخذه الدكتور طه حسين في صدر كتابه حين أثبت على غلافه أبيات المعري التي تقول:

خذي هذا وحسبك ذاك مني ... على ما في من عوج وأمت
وماذا يبتغي الجلساء مني ... أرادوا منطقي وأردت صمتي
ويوجد بيننا أمد بعيد ... فأموا سمتهم وأممت سمتي

وهي أبيات واضحة الدلالة على أن المؤلف لا يصرح بكل ما في نفسه، وأنه قد أخفى ما يخشى أن يعرضه لمثل ما تعرض له حين أخرج كتاب الشعر الجاهلي[٣].

ويرفع الدكتور طه حسين صيحة مدوية ونداء حارًا يدعو فيه إلى أن نبني كلية في الغرب حيث يقول:

نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءًا

(١) هذا الكلام ليس من صنع طه حسين فهو ترديد لما قاله القاضي الإنجليزي ولمر من قبل في كتابه «عامية مصر» (ص١٥) طبعة لندن، سنة ١٩٠١) انظر (ص٢٩٨) من كتاب حصوننا مهدمة من داخلها، د. محمد محمد حسين طبعة خامسة، سنة ١٩٧٨م، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

(٢) مستقبل الثقافة في مصر، د. طه حسين (ص٢٢٩-٢٣٠) الفقهرة (٤٦).

(٣) حصوننا مهدمة من داخلها، د. محمد محمد حسين (ص٢٢٩).

منها لفظًا ومعنى وحقيقة وشكلاً[١] وينادي بالتجديد بل ويحدد طريق هذا التجديد فيقول:

والتجديد هو مسايرة للغربيين في كل شيء، وهو أخذ كل ما عند الغربيين من فكر ومنهج للبحث وحضارة وعادات وتقاليد في فصل الدين عن السياسة ويحاول أن يبعد الدين واللغة عن مجال الترابط وفي ذلك يقول:

إن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ زمن بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين العدل، والدين عند صاحب كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» ظاهرة اجتماعية يقول الدكتور طه حسين للدكتور محمد حسين هيكل قبل أن يلي الوزارة:

إن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وإلى الفقه وإلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع وجود الجماعة في تطورها وتتأثر كالجماعة بمختلف المؤثرات كالبيئة والإقليم والوضع الجغرافي.

وفي كتاب من تأليف «روم لاندو» بالإنجليزية أثبت حديثًا أجراه مع رافع علم العلمانية في مصر وفي هذا الحديث يعود الدكتور طه ليؤكد أن الإسلام لا يتفق مع العلم وأن شيوخ الأزهر يكذبون إذا ما قالوا غير ذلك وأن المسلمين في مصر بين مراء في عقيدة الإسلام وآخر يتخذ العقيدة مجرد تقليد، وأن الإسلام قد يمكن أن يكون في المستقبل دينًا روحيًا بشرط أن تتناوله يد التجديد ثم يقول:

إن الدين عند الأزهريين لا يزيد على أنه حرفة يحترفونها لاقتناص المال[٢].

(١) مستقبل الثقافة في مصر (ص٣٤) وانظر: صراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، للندوي (ص١١٤).

(٢) محاكمة فكر طه حسين، أنور الجندي، دار الاعتصام، (ص٣٠٠، ٣٠١).

دعوة الدكتور طه حسين في ميزان النقد

إن دعوة الدكتور طه حسين هذه بادية البطلان، لا يقبلها إنسان ذو عقل سليم كيف يدعو قومه للتفاني في الغرب؟ وكيف نسي الدكتور طه حسين أن لكل أمة ثقافة تميزها عن غيرها وتحفظ ماهيتها وتجدد شخصيتها وتبرز كيانها وتبين معالمها وطريقة حياتها وتفكيرها.

وإذ كانت الجماعات البشرية في الدول والحكومات والجيوش في ميادين القتال والفرق الرياضية في الساحات، تميز نفسها بمختلف الشارات، فتتخذ الأعلام والأناشيد وأنماط الأزياء والعلامات والأشعرة، تفعل كل ذلك لتميز نفسها من غيرها فلا تضل في الزحام ولا تذوب عند الاختلاط، ولا تنحل رابطتها عند المصادمة والنزال.

أقول إذا كانت الجماعات تفعل ذلك لتميز نفسها فإن الدول أولى أن تفعل هذا بالنسبة لثقافاتها لأنها طريق حياتها، ومن هنا ندرك لماذا كانت الأمم -في كل مراحل التاريخ- تدافع عن ثقافتها وذاتيتها أن تنصهر أو تذهب في ثقافات أمم أخرى.

إن الثقافة -في حقيقتها- هي الصورة الحية للأمة، فهي التي تحدد ملامح شخصيتها وقوام وجودها، وهي التي تضبط سيرها في الحياة وتحدد اتجاهها في الوجود إنها عقيدتها التي تؤمن بها، ومبادئها التي تحرص عليها، ونظمها التي تعمل على التزامها، وتراثها الذي تخشى عليه الضياع والاندثار، وفكرها الذي تود له الزيوع والانتشار.

إن لكل أمة ثقافتها ومثلها العليا وخصائصها الذاتية، التي تشكل طابعها ومزاجها ونفسيتها وقد تلتقي في جزئيات ذلك مع أمم أخرى وقد تختلف ولكنها

في مجموع عناصرها تمثل نموذجًا يرسم شخصيتها العامة[١].

فكيف غاب هذا كله عن فكر الدكتور طه حسين وهو يخطط لمستقبل الثقافة في مصر؟ أو أنه كان على معرفة بهذا كله ولكنه كان وفيًا لثقافة أساتذته من الغرب فدعا إلى أن نأخذ كل شيء من أوروبا من ثقافة أوروبا، ومن حضارة أوروبا ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب على حد تعبيره.

ولو أن الدكتور طه حسين دعا أبناء أمته ليأخذوا من ثقافة الغرب ومن علمه ومن حضارته ما يتناسب مع تعاليم دينهم وتقاليدهم، ويأخذوا من علمه التطبيقي ومن التكنولوجيا الغربية ما يمكن لهم في الأرض ويزيدهم قوة لكان ذلك منطقيًا ومعقولاً، بل ومقبولاً أيضًا فالأمة الإسلامية في حاجة إلى أن تقف على سر الاختراعات الحديثة وكيفية صنع القنابل الذرية وتسيير سفن الفضاء وما إلى ذلك حتى تعيد صنع حضارتها من جديد.

فكان على الدكتور طه حسين وهو رائد الأدب -كما يقولون- أن يحث قومه ليأخذوا هذا الجانب الذي لا يمس عقائدهم ولا يؤثر على تفكيرهم الثقافي الإسلامي، بل وكان عليه أن يحذر قومه من الاندفاع الأعمى وراء ثقافة الغرب حتى لا يأخذوا ما يضر بهم وحتى لا تذوب ثقافتهم في ثقافة غيرهم.

أقول لم يفعل الدكتور طه حسين شيئًا من هذا بل على العكس من ذلك أخذ يدعو أبناء الأمة إلى أن يأخذوا كل ما عند الغرب من خير وشر معًا.

ولذلك يكفي أن نرد على الدكتور طه حسين بقول الفيلسوف الشاعر محمد إقبال الذي اكتوى بنار التعليم الغربي شخصيًا وخاض في دراسته فأبدى حقيقة

(١) إطار إسلامي للفكر المعاصر، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، طبعة أولى سنة ١٩٨٠م (ص١٧٦)، لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عودة الخطيب، طبع بيروت (ص١٢).

في أسلوب عميق إذ يقول عن ثقافة الغرب:

«إياك أن تكون آمنًا من العلم الذي تدرسه، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها».

ويعبر عما تحدثه الثقافة في التحويل والانقلاب من الشيء إلى نقيضه فيقول:

«إن التعليم هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكونها كما يشاء، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيرًا من أي مادة كيميائية هو الذي يستطيع أن يحول جيلاً شامخًا إلى كومة تراب».

إنه يرى التعليم الغربي مؤامرة على الدين والخلق إذ يقول:

إن نظام التعليم الغربي إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة[1].

ذلكم إن التعليم الغربي والثقافة الأوروبية تقوم على الإلحاد في شتى صورها، وتتخذها من المادة والطبيعة آلهة من دون الله الواحد القهار، وقد تحدثنا عن ذلك سابقًا فلا حاجة لنا إلى إعادته مرة أخرى.

ومن المعروف أن للثقافة الغربية آثارًا خطيرة على حياة أمة الإسلام وقد لاحظ «جب» أن النشاط التعليمي والثقافة عن طريق المدارس العصرية والصحافة قد ترك في المسلمين -من غير وعي منهم- أثرًا جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد، ثم يعقب على ذلك بقوله:

«وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار»[2].

---

(١) صراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، للندوي (ص١٦٩).

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين (٢/ ٢٠٤).

فهل هذا هو ما كان يهدف إليه الدكتور طه حسين من دعوته يا ترى؟!!

إن أمة الإسلام لا يجوز لها أن تقف في مؤخر الركب، وأن تعيش على هامش الأمم، وترضى من القيادة والتوجيه والابتكار والإبداع بالتقليد والمحاكاة، إن موقفها الصحيح هو موقف الحر الكريم، القوي الإرادة، المستقل التفكير، الذي يختار من الحضارات ما يلائمه ويحفظ له شخصيته وامتيازه، وينبذ ما يلائمه ويذيب شخصيته ويفقده امتيازه «**ومن تشبه بقوم فهو منهم**»(١).

إنها أمة ذات رسالة عالمية متكاملة، تخضع حضارتها وثقافتها وألوان نشاطها البشري لعقيدتها، لا ليمتد نفوذها وتقوى سيطرتها على الناس ولكن لتسود هذه العقيدة وتسيطر فيسود معها أتباعها ويسيطرون.

فالقول بأننا نأخذ كل ما عند أوروبا مردود وإنما نأخذ وندع، ونبني ونبتكر تحت ظلال عقيدتنا الخالدة.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

رابعًا: سيطرة القوانين الوضعية:

وكان من الثمار المرة ومن آثار الدعوة إلى العلمانية ظهور قوانين وضعية تحكم بها المحاكم المدنية، وهي قوانين تنتظم معظم شئون الحياة والعلاقات المدنية والتجارية والجنائية والإدارية والدولة.

أما الشريعة الإسلامية التي حكمت ديار الإسلام ثلاثة عشر قرنًا فقد زحزحت عن مكانها وحصرت في ركن ضيق تنظم وتقضي فيه في بعض بلاد المسلمين وهو ما يتعلق بشئون الأسرة أو ما يسمى «بالأحوال الشخصية» التي تنظر فيها المحاكم الشرعية وحتى هذا الركن الضيق أو الجانب اليسير من حياة الأمة لم يسلم من تدخل يد الأهواء بين الحين والحين.

وقد وصفت القوانين الحديثة المستوردة من فرنسا وغيرها بأنها عصرية وإنسانية ومتطورة على حين غمزت الشريعة وأحكامها بأنها جامدة أو رجعية أو غير قابلة للتطبيق في العصر الحاضر، بل ربما اتهمت -تلميحًا أو تصريحًا- بأن في أحكامها قسوة ووحشية!!

ورتب على إقرار القوانين الوضعية الأجنبية الأصل مخالفة الإسلام دين الأمة ودين الدولة كما نصت معظم دساتير البلاد العربية والإسلامية مخالفة ظاهرة بإحلال المحرمات أو إقرار المنكرات، أو إهمال الواجبات أو إسقاط العقوبات، مع أمر القرآن الصريح بالحكم بما أنزل الله ورميه بالكفر والظلم والفسق كل من لم يحكم بما أنزل الله.

أجل رأينا القوانين الوضعية تعطل العقوبات والحدود الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة جميعًا لأنها لا تليق بالعصر -في زعم دعاة العلمانية- وتقر بالربا وهو من الموبقات السبع في الإسلام ولا تقترفه أمة إلا أذنت بحرب من الله ورسوله.

ورأيناها تقر شرب الخمر وصنعها واستيرادها والإتجار فيها وأخذ الضرائب عليها، ولا ترى في ذلك جريمة تستحق العقوبة والخمر هي -في الإسلام- أم الخبائث ومفتاح الشرور.

ورأيناها تقر الزنى ما دام وقوعه بتراضي الطرفين «الزاني والزانية» ولا ترى في الزنى جريمة إلا في حالة الاغتصاب والإكراه، أو في حالة الخيانة الزوجية إذا رفع الزوج دعوى بذلك على زوجته.

وإذا كان الزنى نفسه ليس جريمة يعاقب عليها القانون الوضعي فأولى ألا يعاقب على مقدمات الزنى من العري والتهتك والخلاعة والمجون والتحريض على الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

هذا مع أن المفروض أن تكون القوانين معبرة عن عقائد الأمة وأخلاقها وتقاليدها، حامية لقيمها وآدابها وتراثها عنوان الميزة ولكن العيب الأول في هذه القوانين أنها مستوردة من أمة غير أمتنا، لها عقيدة غير عقيدتنا، وقيم غير قيمنا، وأخلاق غير أخلاقنا، وتقاليد غير تقاليدنا[١].

ومن أجل ذلك فهي لا تراعي طبيعة ديننا وفطرة أمتنا، وتعاليم قرآننا وهدي نبينا ﷺ، طالما لا تخضع لمعايير دينية، وإنما تخضع لمعايير بشرية فجعل البشر - عندما انحرفوا عن الله- المصلحة أساسًا لكل معيار.

ولكن المصلحة ليست ذات وحدة قياسية موضوعية ثابتة، فقد يختلف فيها اثنان خرجا من صلب واحد واستقرا في رحم واحد، وعاشا في بيت واحد، فكيف تصلح هذه المصلحة معيارًا وتكون مقياسًا يرضي الشرق والغرب معًا؟ أو يرضي الناس جميعًا؟

---

(١) الحلول المستوردة، د. يوسف القرضاوي (ص٦٩-٧٠).

ولذلك فقد أصاب الفيلسوف المسلم محمد أسد كبد الحقيقة عندما قال: إنه في الدولة العلمانية الحديثة لا يوجد مفهوم ثابت يمكن به التمييز بين الخير والشر والعدل والظلم.

إن المقياس الوحيد في مثل هذه الدولة هو «مصلحة الأمة» وفي حالة عدم وجود ميزان ثابت للقيم الخلقية فإن الأفراد ستصبح لديهم وجهات نظر متباينة كل التباين حول ما يخدم مصالح الأمة على أحسن وجه.

فبينما قد يرى الرأسمالي بإخلاص أن الحضارة البشرية مهددة بالزوال إذا حلت الاشتراكية محل الحرية الاقتصادية، يرى الاشتراكي بإخلاص لا يقل عن إخلاص زميله، أنه لا يوجد سوى وسيلة واحدة لصيانة الحضارة البشرية، هي إلغاء النظام الرأسمالي وإحلال النظام الاشتراكي محله.

وتكون النتيجة ما تراه اليوم من اضطراب وبلبلة يهددان بالخطر العلاقات بين الدول والشعوب، ويستحيل على أية أمة أن تعرف طعم السعادة ما لم تكن موحدة من الداخل، ويستحيل على أية أمة أن تتحد من الداخل ما لم تصل إلى نوع من الاتفاق على تحديد واضح لما هو عدل وظلم في شئون الناس والحياة، ويستحيل الوصول إلى مثل هذا الاتفاق بالتالي ما لم تتعارف الأمة على التزمات خلقية منبثقة من قانون أخلاقي دائم مطلق.

ومن الواضح أن الدين -والدين وحده- هو القادر على أن يقدم لنا هذا القانون المطلوب، وبهذا القانون يمكن أن يوجد أساسًا الاتفاق داخل الأمة أو المجتمع على الالتزامات الخلقية التي يخضع لها كافة الأفراد مختارين[1].

---

(١) منهاج الحكم في الإسلام، محمد أسد، ترجمة منصور محمد ماضي، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة سادسة سنة ١٩٨٣م (ص٢٢) وما بعدها بتصرف.

أهداف الدعاة العلمانية

إن هدف الأوروبيين وعملائهم من الدعوة إلى العلمانية والإلحاح عليها والاستماتة في علمنة الحياة في العالم الإسلامي، هو أن يصبح هذا العالم تابعًا للغرب، يسير في دائرة نفوذه، ويتحرك في ركابه ويدور في محوره ويصبح بقرة حلوبًا يأخذ منها الغرب كل شيء ولا يترك لصاحبها شيئًا.

فالغرب له مصالح اقتصادية عديدة واستثمارات مالية كبيرة في البلاد الإسلامية في آسيا وأفريقيا، ومن شأن قبول هذه البلاد العلمانية أن يسهل للغرب طريق الحركة في سبيل الاستغلال الاقتصادي سواء أكان من مصادر الثروة أم من دائرة الطاقة البشرية.

وكتاب «الإسلام قوة الغد العالمية» لبول شمتز سنة ١٩٢٦م[(١)] يوضح في غير لبس إمكانيات البلاد الإسلامية من:

١ - الثروة الأرضية والمعدنية وتكاملها.

٢- وطاقة المسلمين في الخصوبة الجنسية.

٣- ويسر الارتباط بينهم على الإيمان بالله.

وينذر أوروبا بالفناء إن هي مكنت للمسلمين من التجمع واستخدام هذه القوى الثلاث، ونداء هذا الكتاب الموجه إلى الأوروبيين بالإنذار يعبر عن عمق الرغبة الدينية في الحيلولة دون تجمع المسلمين على الإسلام[(٢)].

---

(١) ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور محمد شامة الأستاذ بجامعة الأزهر.

(٢) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د. محمد البهي، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، مطبعة الأزهر، بدون تاريخ (ص٤٩).

ولعل هذا هو السر في تركيز الغرب الشديد على العالم الإسلامي -وحده- وحرصه القوي على علمنة حياته، بينما لا يفعل الشيء نفسه مثلاً مع دولة كإسرائيل تلك التي لم تقم إلا على أساس خالص للدين والتي تتشبث بقوة بتعاليم التوراة وتعض عليها بالنواجذ وذلك في كل مجال من مجالات العلم والدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد بل وفي الحياة الفردية واليومية.

وفيما يلي مقتطفات لأحد الشيوعيين العرب سابقًا حيث عاش مع الشيوعيين اليهود جنبًا إلى جنب وعمل معهم مدة طويلة لندرك مدى سيطرة الدين على الحياة ومظاهرها في إسرائيل إنه يقول:

في قلب بلادنا تقوم دولة تحمل اسم نبي من التوراة ليس لها دستور لأن الأحزاب الدينية تصر على أن التوراة هي الدستور، محرمًا فيها العمل يوم السبت، ولم تر في ذلك أي إخلال باقتصادها وارتباطها بالبنوك العالمية التي تتعطل يوم الأحد، بل يحرصون على أن تكون الجلسة الأسبوعية للكنيست يوم الأحد، ومحرم فيها على الجيش طبخ الطعام يوم السبت، تقول «يائيل دايان» في مذكرات جندي:

أكلنا طعامنا مطهوًا يوم السبت ٣ يونيو سنة ١٩٦٧م بتصريح خاص من الحاخام الأكبر.

جيش إسرائيل الذي يوشك أن يمتلك القنبلة الذرية يمتنع عن طبخ الطعام يوم السبت، وابن غوريون وشازار يسيران ميلاً ونصف ميل على الأقدام في جنازة تشرشل لأنها صادفت يوم السبت ومحرم في التوراة ركوب وسائل النقل يوم السبت، وعمر ابن جوريون ٧٨ سنة وعمر شازار ٧٦ سنة في وقت الجنازة، ولم تجد الصحافة العالمية ولا الرأي العام الإنجليزي في ذلك مدعاة للسخرية لكنها تجد في ذلك مدعاة للإعجاب.

وجميع طائرات شركة «العال» الإسرائيلية، وسفن شركة «زيم» لا تقدم لحم الخنزير.

في إسرائيل أحزاب دينية معترف بها ولها وزنها.

الزواج المدني غير معترف به لحد أنهم رفضوا إعطاء الجنسية لحفيد ابن غوريون لأنه من أم غير يهودية.

اللغة العبرية لغة رسمية، درسوا بها الصواريخ وإفساد الرادار وضرب الطائرات على المدرجات، وألفوا بها أدبًا نالوا بها جائزة نوبل العالمية.

في نفس الوقت -ولأجل أن تقوم إسرائيل- صدروا إلينا عملاء يجعلون لب كفاحهم فصل الدين عن الدولة، ويصابون بالفالج عندما يسمعون أن الدستور سينص على أن دين الدولة هو الإسلام، ويسودون الصحائف في أضرار شهر رمضان على الإنتاج، ونحن أمة مستهلكة دون شك.

والذين ألغوا شعار الهجوم «الله أكبر» من الجيش ولم يعيدوه إلا بعد النكسة بخمسة عشر شهرًا، بينما أول دبابة إسرائيلية دخلت سيناء مكتوب عليها آية من التوراة، ونصاب بالذين تشغلهم صعوبة اللغة العربية، ويبحثون عن حروف أخرى لها، أو عزلها عن مجال العلم بزعم أنها لغة متخلفة، والعبرية التي انقرضت منذ ألفي سنة أصبحت لغة العلم[١].

وحتى نقف على سياسة إسرائيل التعليمية نقدم بعض المعلومات عن مؤلفات وتقارير خبراء التعليم في الشرق الأوسط.

يقول الدكتور «رودر مايثوز» والدكتور «متى عقراوي» في كتاب «التربية في

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للندوي (ص١٥٦، ١٥٧).

الشرق العربي»:

إن أهم ما يسترعى الأنظار في المدارس الإسرائيلية في فلسطين أن لغة الدراسة في كافة المواد هي العبرية فيما عدا اللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية، والعناية شديدة في جميع مراحل التعليم بالدراسة الدينية وجعل التعليم الديني أساس الصهيونية وتقدمها، وجاء في مقال: «التعليم العالي في إسرائيل» ما يلي:

إن سياسة التعليم العالي تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية والولاء لها بالإضافة إلى الرعاية لإسرائيل وكسب الأصدقاء[(١)].

يقول صاحب كتاب «من هنا نعلم»[(٢)]:

وهو يتحدث عن رفض اليهود تسمية دولتهم باسم الاتحاد اليهودي أو الجمهورية اليهودية أو الاشتراكية إلخ إلخ وإصرارهم على تسميتها باسم «إسرائيل» يقول:

أجل لقد رفضوا هذه الأسماء، وعادوا القهقري إلى التاريخ القديم ينبشون في ترابه وينقبون في آثاره، وطووا عشرات القرون ثم ظهروا بعد ميلاد عيسى بألفي عام، ظهروا على الناس باسم «إسرائيل» رمز تمسكهم بدينهم وتشبثهم بذكرياتهم واحترامهم لمقدساتهم.

واليهود الذين فعلوا ذلك هم أساطين المال والعلم ودهاقين السياسة والاقتصاد، وفيهم من اشترك في تفجير الذرة. ومن ساهم في كثير من المخترعات، ومع ذلك فما شعروا بخجل في الانتماء لدينهم، وفكروا في التخلص من آثاره.

---

(١) المصدر المذكور (ص١٥٧، ١٥٨).

(٢) الأستاذ محمد الغزالي (ص٤٩، ٥٠).

ذلك يحدث بين اليهود في الوقت الذي تجد فيه مأفون كل بضاعته من العلم قشورًا قرأها، أو لغة أجنبية أجادها، أو تقاليد أفرنجية عرفها، أو ملابس أوروبية ارتداها، ثم هو يتحدث عن الدين فيلوي لسانه بكلمات الرجعية والجمود.

فإذا تكون جيل من هؤلاء الحمقى يقف من الإسلام هذا الموقف الزري فأي بلاء يصيب الإسلام منه؟

أليس من العجائب التي تلدها الليالي السود أن الذين برزوا في العلم المادي يؤمنون بأديانهم الباطلة، وأن الذين طالعوا أنباء مقتضبة عن هذا العلم يريدون أن يكفروا بالدين الحق، أي بالإسلام الحنيف.

هذا ما تفعله إسرائيل وتحرص عليه وتعمل له... تتمسك بالدين وتجعله أساس التعليم وأساس التربية بل والمسيطر على كل شئون حياتها، ولا نجد -من أبنائها- من يزعم بأن مبادئ الدين رجعية والتمسك بها تخلف وجمود، وتركها تقدم وحضارة ومدنية.

أما نحن المسلمين فما أكثر الذين يسيرون في ركاب الغرب وما أكثر الذين خدعوا بثقافة الغرب ودعاوي الغرب التي تزعم -فيما تزعم- بأن الدين وراء تأخر المسلمين وفقر المسلمين وجهل المسلمين وضعف المسلمين.

ولذلك فلا بد -كي ينهض المسلمون- من عزل دينهم عن كل شئون حياتهم وحصره في المساجد والزوايا فقط، ولا بد -لضمان التنفيذ- من وجود حكومة علمانية تعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

أليس من الظلم لشعوب الأمة الإسلامية أن تفرض عليهم القوانين الوضعية فرضًا وهم لها كارهون؟

أليس من الظلم بل ومن الإجرام أيضًا في حق الشعوب الإسلامية أن تنحي

القوانين الإلهية لتحل مكانها القوانين البشرية.

أليس من الظلم في حق الشعوب الإسلامية أن يفصل دينهم عن قيادة مجتمعاتهم، وأن تترك هذه المجتمعات نهبًا لقوانين ما أنزل الله بها من سلطان؟ إن فصل الدين عن الدولة هو -على حد تعبير- مصطفى صبري[(١)]:

مؤامرة بالدين للقضاء عليه... وكما يقول:

قد كان في كل بدعة أحدثها العصريون المتفرنجون في البلاد الإسلامية كيْد للدين ومحاولة الخروج عليه، لكن كيدهم في فصله عن السياسة أدهى وأشد من كل كيد في غيره، فهو ثورة حكومية على دين الشعب.

في حين أن العادة أن تكون الثورات من الشعب على الحكومة، وشق عصا الطاعة منها أي الحكومة لإحكام الإسلام بل ارتداد عنه من الحكومة أولاً ومن الأمة ثانيًا، إن لم يكن بارتداد الداخلين في حوزة تلك الحكومة باعتبارهم أفرادًا فباعتبارهم جماعة، وهو أقصر طريق إلى الكفر من ارتداد الأفراد بل إنه يتضمن ارتداد الأفراد أيضًا لقبولهم الطاعة لتلك الحكومة المرتدة، التي ادعت الاستقلال لنفسها بعد أن كانت خاضعة لحكم الإسلام عليها[(٢)].

ومن العجب العجاب أن ينادي -بعد هذا- بعض أبناء الأمة الإسلامية أن **نأخذ عن الغرب كل ما عنده** من خير وشر، ومن صالح وطالح، ومن نافع وضار، **ما يحب منه وما يكره**، وما يحمد وما يعاب، وأن نفصل -كما فصل الغرب- الدين عن الدولة، وأن ندرك أن السياسة شيء والدين شيء آخر، بينما

---

(١) شيخ الإسلام في تركيا سابقًا وصاحب كتاب «موقف العقل والعلم والعالم» من رب العالمين، انظر (٤/ ٢٨١) من هذا الكتاب المذكور، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم، مصطفى صبري (٤/ ٢٨٢).

نجد بعض الغربيين ينصح المسلمين في لحظة صدق مع النفس -ألا يأخذوا من الغرب إلا ما يمنحهم القوة ويمكن له في الأرض- ثم يبتعدوا بعد ذلك عن كل مفاسد الغرب وآثامه.

يقول العلامة «شارل ميرمر» في مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤م آمرًا المسلمين باتباع دينهم:

اسمحوا لي أن أنصح لجميع المسلمين أن لا يطلبوا مستقبلهم في تقليد النظامات الأوروبية والمسيحية فاطرحوا هذه النظامات، وأمعنوا النظر في مشهد ما نحن فيه «نحن الأوروبيين» من الفوضى الخداعة واطلبوا من دينكم الذي هو أسمح دين وأكثر مساواة مفتاح مستقبلكم ولا تفضلوا أن تستعيروا منا إلا الاكتشافات العلمية الخاصة بإنماء سعادتكم المحلية(١).

فهل يسمع المسلمون هذه النصيحة المخلصة، وهل يأخذ المسلمون بها، وهل يترك المسلمون هذه النظم العلمانية الغربية؟

وهل يخط المسلمون من دينهم الرباني طريق مستقبلهم وسبل سعادتهم؟ وهل يخلع المسلمون ثوب العلمانية بعد أن تمزق وهوى نسيجه في مستنقع الضياع؟

وهل يدرك المسلمون أن الدعوة إلى العلمانية في عالم الإسلام -على حد تعبير الدكتور محمد رضوان- تكشف عن الجهل بحقائق الإسلام وتاريخه الفكري الناصع وقدرته على استيعاب كل تقدم علمي وصناعي وفكري، بل وحثه أتباعه على إحراز هذا التقدم؟

---

(١) إطار إسلامي للفكر المعاصر، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، طبعة أولى سنة ١٩٨٠م (ص٣١٨).

فقد كان الإسلام قادرًا بمرونته وقدرته الكامنة على إعطاء الحياة المتجددة قوتها[(١)].

ولذلك فإن تطبيق العلمانية في البلاد الغربية أسهل منه في البلاد الإسلامية.

ذلك أن المسيحية لم تشتمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة.

أما الدين الإسلامي فبالإضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق، فقد جاء بنظام شامل يمس حياة الإنسان في شتى نواحيها من المهد إلى اللحد، وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الإنسانية[(٢)].

إن النظام السياسي الذي ينبثق عن القرآن والسنة ليس وهمًا أو خيالاً، بل إنه راسخ الدعائم واضح المعالم، وهو يرسم لنا حدودًا جلية لمنهاج سياسي صالح للنفاذ والتطبيق في كل الأزمنة وبالنسبة لكل ظروف الحياة البشرية.

ولما كانت غاية هذا المنهاج السياسي أن يكون صالحًا للتطبيق في كل الأزمنة وبالنسبة لكل الظروف، فقد جاءت الأحكام المتعلقة به في هيئة مبادئ عامة فقط ولم تتعرض للفروع.

إن حاجات الإنسان السياسية حاجات مرتبطة بالزمن متغيرة مع تغيره، وليس هناك أنظمة أو أحكام شرعية معينة مهما تكن صارمة يمكن لها أن تحد من فعالية هذا القانون الطبيعي الغلاب، قانون التغيير والتطور.

ولهذا فإن الشريعة الإسلامية لم تحاول المستحيل، ولما كانت الشريعة ناموسًا

---

(١) الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة، أنور الجندي (ص٣٦).

(٢) دعوة إلى الإسلام، محمد الفضالي، نقلاً عن الإسلام والمذاهب الهدامة، أنور الجندي (ص١٥٣).

إلهيًا، فقد كان طبيعيًا أن تضع في اعتبارها سلفًا هذا التطور التاريخي.

ولهذا فهي تقدم للمؤمن عددًا محدودًا جدًا من المبادئ السياسية وتترك بعد ذلك المجال رحيبًا لصياغة الدساتير وتنظيم الحكومة وما يتصل بذلك من سن القوانين التي تتطلبها الظروف المتغيرة، لاجتهاد المسلمين في كل عصر.

ولذا فإنه لا يوجد شكل واحد للدولة الإسلامية، بل إن هناك أشكالاً كثيرة وإن على المسلمين في كل زمن أن يكتشفوا الشكل الذي يلائم ويحقق حاجاتهم، شريطة أن يكون الشكل والنظام اللذان يقع عليهما الاختيار متفقين تمامًا مع الأحكام الشرعية الظاهرة المتعلقة بتنظيم حياة المجتمع(١).

وليس في الإسلام حكومة إلهية من مجموعة من الناس أيًا كان إخلاصهم في العبادات لله، وأيًا كانت منزلتهم منه، إذا أخذت بتعاليم القرآن واتبعت مبادئه في سياستها، فهي حكومة إنسانية تخضع للخطأ والصواب.

ولذا -عند النزاع- في الأمر مع القائمين على شأن الحكومة الإسلامية فالقرآن الكريم يطلب العودة بالنزاع بين الطرفين -طرف الحاكمين وطرف المحكومين- إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ التي تعبر عنه توضيحًا أو تطبيقًا بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٨-٥٩].

---

(١) منهاج الإسلام في الحكم، محمد أسد، ترجمة منصور محمد ماضي، دار العلم للملايين، طبعة سادسة، مارس ١٩٨٣م (ص٥٤، ٥٥).

فهنا يأمر القرآن المؤمنين جميعًا من أولي الأمر وغيرهم بأربعة مبادئ:

أولاً: بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي مقدمتها أداء صاحب الولاية العامة أمانة ولايته لمن يولي عليهم، وبالأخص العمل طبقًا لما جاء في كتاب الله تعالى.

ثانيًا: بمباشرة العدل في الحكم والقضاء بين الأطراف المعنية في الخصومة.

ثالثًا: بالطاعة لما لله من قوانين ومبادئ في صورة أوامر أو نواهٍ، أو وصايا، وطبقًا لما جاء في كتابه وفي سنة رسوله قولاً وعملاً.

رابعًا: بالاحتكام إلى ما لله في القرآن وسنة الرسول من مبادئ وأحكام وتطبيق عملي، عند التنازع بينهم وبين أولي الأمر منهم.

فطلب القرآن الكريم رجوع المؤمنين جميعًا إلى ما لله في الكتاب والسنة ما بين ولي الأمر، ومن عدا في الجماعة يوضح في غير إبهام أن أصحاب الحكم والولاية العامة في الجماعة المؤمنة لا يرتفع مستواهم إلى «العصمة» عن الخطأ، وإنما يجوز عليهم الخطأ كما يجوز عليهم الصواب في الشئون الدنيوية لأن تبليغ الوحي معصوم عن الخطأ[1].

إن الإسلام بناء كامل له أفقه الحضاري، وله جهازه الثقافي، وقانونه التشريعي، ومجتمعاته التي تقوم على الأخلاق، ومدارسه التي ترتكز على الروح والآداب، ومثالياته التي تبنى عليها الحياة وتصعيده لكل عمل من أعمال الدنيا إلى الله.

إن الإسلام دين ورث النبوات والرسالات كافة وارتضاه الله أفقًا لجامعة

---

(١) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د. محمد البهي، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، مطبعة الأزهر، بدون تاريخ (ص٣١، ٣٢).

الرسل، وعنوانًا لكل كتاب مقدس، فأي تنازل منه في ميادينه التشريعية والخلقية والتعبدية هو إهدار لكل الأديان وتفريط في أمانة الله ومساندة للعلمانية بجميع صورها.

إن الإسلام لا يعرف الجمود والتزمت والانفصال داخل الأسوار، إنه لدين يمشي بالحياة ويمتد مع الناس إلى الخير ولا ينكص، إنه رسالة الدنيا كما هو رسالة الأخرى، رسالة للعلم والقوة وكل ما يعينه على أن يكون القوة الأولى.

وعلى هذا الضوء يجب أن نحدد موقفنا من الحضارة القائمة، فنأخذ منها مسببات القوة والبأس الشديد والعلم العريض ونعرض عن تحللها ومفاسدها، وعداوتها وجاهليتها الشهوانية الملحدة، وهذا ما نصحنا به «شال ميرمر» في لحظة صدق مع النفس.

إن من مقومات نهضتنا أن ننتفع بالمعارف العالمية التي كسبها الإنسان في تطوره التاريخي وأن تضم إلى قوتنا الذاتية تلك القوى التي تعمل في حقل الحضارات المعاصرة، وأن نقتبس من نظمها كل نافع لنا وكل معين على نهضتنا.

علينا أن ننتفع ببرامجها في الإعداد والتنظيم والإنتاج، وأساليبها في الدرس والتحصيل والابتكار، وأن نأخذ من قوانينها العامة المنتقاة كل ما لا يتعارض مع روح الإسلام.

كما يجب أن ندرك أننا في عصر صناعي جبار، ولا حياة لأمة لا تبني نهضتها على بأس الحديد، وطاقات المعادن وتفجرات خواصها، ولا وجود لشعب ينطوي على نفسه داخل القماقم.

إننا لا نتشبه بأوروبا ولا نذوب في حضارتها، ولكن لا نجحد صولة ما

وصلت إليه من قوى ولا عظمة ما ابتكرت من معارف واختراعات[(١)] مما يحتم علينا أن نأخذ كل نافع وأن نترك كل ضار.

نأخذ كل ما من شأنه أن يجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى فأخذ كل ما يمكن لنا من إعادة حضارة سلف هذه الأمة الصالح كي نبطل دعاوي المغرضين ومزاعم المتفرنجين، تلك التي تستهدف تعاليم ديننا الحنيف ونظم شريعتنا السمحة الخالدة.

وكي ترتفع راية الإسلام في الخافقين مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩].

علينا أن نحتفظ بثقافتنا الذاتية وأن نأخذ الجانب العلمي البحت في العلوم التجريبية وتطبيقاتها العلمية والعملية ومنجزاتها الآلية والإنتاجية.

فهذا الجانب يفيد منه المسلم وتفيد الأمة الإسلامية وتبنى عليه وتبتكر وتبدع، لأنه ميراث مشترك بين البشرية كلها، أسهمت فيه كل أمة بما قدمه علماؤها عصرًا بعد عصر، وجيلاً بعد جيل، فليس ملكًا لأحد وفي هذا يقول الأستاذ محمد أسد في كتابه «الطريق إلى مكة»[(٢)]:

إن اكتساب الأفكار والأساليب العلمية ليس في الحق تقليدًا وبالتأكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد، إن العلم لا غربي ولا شرقي، ذلك أن الاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لا نهاية لها

---

(١) دولة القرآن، طه عبد الباقي سرور، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة، (ص٣٨، ٣٩) بتصرف.
(٢) (ص٣٧٤-٣٧٦).

من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله.

إن كل عالم يبني على الأسس التي يقدمها له أسلافه، سواء كانوا من بني أمته أو من أبناء أمة غيرها.

وعملية البناء والإسلام والتحصين هذا تستمر وتستمر، من إنسان إلى إنسان، ومن عصر إلى عصر، ومن مدنية إلى مدنية، بحيث إن ما يحققه عصر معين أو مدنية معينة من أعمال علمية جليلة، لا يمكن مطلقًا أن يقال: إنها تخص أو تعود إلى ذلك العصر أو إلى تلك المدنية.

فقد يحدث في مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أمة ما، أمضى عزيمة وأشد همة من غيرها بنصيب أكبر في صندوق المعرفة، ولكن الجميع مع الزمن يشتركون، وبصورة شرعية صحيحة في هذه العملية.

لقد جاء حين كانت مدنية المسلمين أقوى وأمضى من مدنية أوروبا فنقلت إلى أوروبا كثيرًا من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية، وأكثر من هذا مبادئ تلك الطريقة العلمية نفسها التي يرتكز إليها العلم الحديث، والمدنية الحديثة.

ومع ذلك فإن اكتشافات جابر بن حيان الكيماوية لم تجعل من الكيمياء علمًا عربيًا، كذلك لا يمكن أن يقال: إن الجبر وعلم المثلثات هما علمان إسلاميان، مع أن الأول منهم بسطه الخوارزمي، والثاني البتاني، وكلاهما كانا مسلمين تمامًا.

كما لا يستطيع أحد أن يتكلم عن نظرية الجاذبية «الإنجليزية» مع أن صاحبها كان إنجليزيًا، كل هذه الأعمال العلمية العظيمة هي ملك مشترك بين الجنس البشري كله.

وإذا فإن المسلمين إذا تبنوا -كما هو من واجبهم أن يفعلوا- الطرق

والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية فإنهم بذلك لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم، ولكنهم إذا تبنوا وهم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئًا، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ومما يدلهم عليه دينهم نفسه.

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنة فحسب، بل ربما استطاعوا أيضًا أن يعطوا إنسان الغرب طلاوة الحياة الضائع.

هل نحن في حاجة إلى العلمانية؟

مما لا شك فيه أن الله تبارك وتعالى قد اختتم سلسلة الأديان السماوية برسالة الإسلام الخالدة التي ضمت بين أجنحتها الأسس والقوانين والتشريعات التي تحقق سعادة البشرية ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

ولذلك فقد رضي الله لنا الإسلام دينًا ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وأمرنا جل جلاله ألا نحيد عن هذا الدين كطريق عبادة ومنهج حياة وسلوك ولا نتبع غيره حتى لا نضل الطريق، بل لا بد من التمسك به والسير على هداه ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والرسول ﷺ يقول: «**أتيتكم بالمحجة البيضاء ليلها كنهارها وتركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنة رسوله**» ولا يأمرنا الله جل جلاله بالتمسك بهذا الدين إلا إذا كان صالحًا لكل زمان ومكان شاملاً لمقومات الحياة الكريمة السعيدة، جامعًا بين المادة والروح بين حياة الإنسان الدنيوية وحياته الأخروية.

حتى إننا نلمح في سهولة ويسر هذه الروابط المتينة التي لا تفصم أبدًا بين الأمور التعبدية، والسلوك الإنساني، فكل ما فرضه الإسلام من عبادات هو في الواقع تغذية للإنسان وتربية لنفسه وروحه جميعًا لتكون ثمرة أعماله طيبة وليكون ذلك ثمنًا يقدمه لفوزه برضا الله والجنة ولينال الجزاء الأوفى في الآخرة.

فليست نظرة الإسلام أن أعطوا ما لقيصر لقيصر وأعطوا ما لله لله كما دعت المسيحية إلى ذلك، وإنما نظرة الإسلام أن نأخذ الحياة جميعًا، وأن يرتبط الإيمان والعبادة بالعمل والتطبيق والخلق والجهاد المستمر والإبداع الدائم في مشاكل الحياة كلها حسب تطور الزمن واختلاف البيئات.

فالرهبنة والتقشف والزهد في الحياة والعبادة ليل نهار والتحقير من شأن الدنيا والدعوة إلى الكسل والخمول والتواكل وعدم السعي وعدم الحرص على النشاط المادي المشروع، ليس كل ذلك مما يقره الإسلام في شيء.

إن الإسلام ليس عقيدة فحسب، ولكنه عقيدة ونظام، وليس الإسلام دينًا فقط ولكنه دين ودولة، «فالنظام الإسلامي أشبه ما يكون بالآلة التي تنتج الكهرباء والعقيدة الإسلامية هي النور الذي تعمل الآلة لإنتاجه، فإذا عطلت الآلة انقطع النور وانتهى الإسلام»(١).

ومن هنا لا بد من أخذ الإسلام كله كعقيدة ونظام، كشريعة وسياسة، كدين ودولة، كي تتحقق الهداية والتمكين والسعادة التي وعدنا الله بها.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

والذين يدركون حقيقة الإسلام ويعيشون تجربته يعرفون تمامًا أنه نسيج وحده وأن قطع أي خيط من خيوطه المحبوكة بإعجاز رائع كفيل بتمزيق هذه الوحدة المتجانسة.

---

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة (ص٥٩).

إن الإنسان الذي يؤمن بالإسلام ذلك الإيمان المبتور المشوه، فيأخذ بعضه ويترك بعضه سرعان ما يجد أمامه هوة سحيقة تمنعه من الاندماج والتعامل الصحيح مع هذا الدين.

إن المنهج الإسلامي وحدة متكاملة لا يمكن الفصل بين جزئياتها المتراصة والذين يقسمون الإسلام إلى قطاعات أربع تشمل العقائد والعبادات وآداب السلوك والتشريعات، إنما ذلك فقط لغرض التوضيح والتنسيق، فهم يدركون أن هذه القطاعات جميعًا متداخلة فيما بينها تداخلاً عضويًا صميمًا، كل منها مؤثرة في الأخرى ومتأثرة بها، لا تنفصل أحداهما عن الأخرى، ولا تنزوي هنالك في الظلام كي تتيح للإنسان حرية العمل في القطاعات الأخرى كما يشاء وحسبما يملي عليه هواه.

إن العبادات ذاتها كعلائق مجردة بين الفرد وخالقه إنما تعني -في الإسلام- ذلك المولد الحيوي الدائم الذي يبعث في كيان الإنسان المسلم الطاقة المتجددة التي تدفعه إلى مزيد من النشاط الحضاري الخلاق ويلزمه العمل بكل أمانة وتجرد وإخلاص.

فالشعور بالمسئولية ويقظة الضمير والإحساس الحاد بالزمن إنما هي أهداف أساسية لهذه الصلات اليومية بين الإنسان المسلم وربه جل جلاله أهداف تضفي على الحضارات الدينية طابعًا خاصًا من الحيوية والتجدد والاستمرار.

وقد وصف القرآن الكريم المؤمنين بأنهم ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١]، ووصف الأمة الإسلامية بقوله: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إن العقيدة -فضلاً عن دورها الإيجابي في توجيه الطاقات البشرية نحو العمل والحركة الدائبة- فإنها تقف في الوقت ذاته سدًا منيعًا يصد الإنسان فردًا وجماعة عن الانحراف عن الطريق المستقيم وتشد أنظاره دومًا بالأفق الأعلى، فيدخر عليه طاقاته ويحفظ سنيه المعدود على الأرض من الضياع.

وذلك هو المعنى الحضاري لمفهوم وحدة الإسلام، ذلك الدين الذي يصبغ كل حركات الأفراد ويطبع أعمالهم بالطابع الإلهي، إنه ليصعد كل عمل من أعمال الدنيا إلى الله، وبذلك يكون الإسلام رسالة عالمية يحمل فكرة عالمية لخير الحياة كافة(١).

إن الدين الذي اضطر مؤرخًا مثل «جب» إلى أن يقول عنه في كتابه «مستقبل الإسلام».

إنه ليس دينًا بالمعنى المجرد الخاص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية(٢).

فهل نحن في حاجة بعد هذا كله إلى علمانية؟

هل نحن في حاجة إلى هذا التصور العلماني الناقص الذي جر الوبال على أوروبا وأفسد عليها حياتها؟

هل نحن في حاجة إلى العلمانية إذا أخذنا بمنهج الإسلام في التشريع وبمنهج الإسلام في العبادات وبمنهج الإسلام في الحكم وبمنهج الإسلام في الأخلاق، وبمنهج الإسلام في السلوك، وبمنهج الإسلام في الاقتصاد، وبمنهج

(١) دولة القرآن، طه عبد الباقي سرور، (١/ ٦٧) الطبعة الثانية.
(٢) تهافت العلمانية، الدكتور عماد الدين خليل، (ص٦٢، ٦٤).

الإسلام في العلاقات بين الفرد والجماعة وبين الشعوب والدول؟ وخاصة وقد بين لنا الإسلام ورسول الإسلام كل شيء نحتاج إليه.

يقول ابن القيم وهو يتحدث عن رسالة الرسول ﷺ وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده.

فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها ... ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه لأمة في علومها وأعمالها عما جاء به.

وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علمًا وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقتال، وجمع أحكام الحياة والموت، وعرفهم معبودهم، وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله.

وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرفهم ﷺ طريق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله وعرفهم ﷺ من مكايد الحروب، ولقاء العدو وطريق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدًا.

كذلك عرفهم ﷺ من أمور معاشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة[1].

إن الذين ينادون بتنحيه دين الإسلام وحضارة الإسلام عن حياتنا ويرفعون رايات العلمانية هم الذين لم يفقهوا مقاصد الإسلام وغايات شريعته، تلك التي جعلت مصلحة الأمة هي معيار الصواب والخطأ والنفع والضرر في

---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم الجوزية (٤/ ٣٧٥، ٣٧٦) سنة ١٩٨٠م، مكتبة الكليات الأزهرية.

السياسة والدولة والمجتمع بل وجعلت المرجع الأول في حسن الأمور وقبحها.

ومن ثم وتبعًا لذلك رضا الله أو سخطه هو لجماعة المسلمين ... فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن(١).

إن شريعة الإسلام ما جاءت إلا لتقيم -بين الناس- الحق والعدل فإذا تحقق ذلك أو على حد تعبير الإمام ابن قيم الجوزية: فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العدل وأسفر صبحه بأي طريق فثم شرع الله ورضاه وأمره(٢).

إن الله جل جلاله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فجاء هذا الرسول الكريم -كما يقول ابن القيم- يحمل خير الدنيا والآخرة ولم يحوج الله الناس لأحد سواه فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها وقد قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

أفبعد هذا كله نهرول كالعبد الآبق وراء القوانين الوضعية والتشريعات البشرية ونترك شرع الله المجيد وهدي رسوله العظيم وكأننا ما سمعنا قول الرسول ﷺ: «**قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يبقى منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجد**»(٣).

ولا شك أن شريعة الإسلام التي تركها لنا رسول الله ﷺ صالحة لكل زمان

---

(١) العلمانية أو نهضتنا الحديثة، د. محمد عمارة، دار الشروق، طبعة أولى، سنة ١٩٨٦م (ص٦٧).

(٢) أعلام الموقعين، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٣م (٣/ ٣).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه عن العرباض بن سارية (١/ ٤٢) والترمذي (٥/ ٢٦٧٦).

ومكان بل هي تصلح كل زمان ومكان.

ذلكم أن الإسلام وهو من صنع بارئ هذا الكون ومنشئ نواميسه، والعالم بما يجد فيه ويحدث وما يتطور كان في علمه هذا التطور التاريخي وما يترتب عليه من تطور اجتماعي واقتصادي وفكري عام، وإنه لهذا وضع للخطوط الثابتة والمبادئ العامة والقواعد الشاملة التي لا تخرج أطوار الإنسان في النهاية عن حدودها، وترك التطبيقات لتطور الزمان وبروز الحاجات في حدود مبادئه العامة، وقواعده الشاملة، ولم يدل بتفصيلات جزئية مقيدة إلا في المسائل التي لا يتغير حكمها والتي تؤدي أغراضها كاملة في كل بيئة والتي يريد الله تثبيتها في الحياة البشرية؛ لأنها ضمان للخصائص التي يرتضيها لهذه الحياة، وإنه لهذا الشمول وهذه المرونة قد كفل لأحكامه التطبيقية النمو والتجدد على مر الزمان.

ولقد بذل فقهاء هذا الدين جهدًا ضخمًا مشكورًا في التطبيق والقياس والتفريع، كفل لأحكام الإسلام أن تلبي حاجات المجتمع المتجددة في كل الأزمنة التي ساد فيها حكم الإسلام وطبقت فيها شريعة الغراء.

ثم وقف هذا الجهد عندما تخلى المجتمع الإسلامي عن الإسلام بتخليه عن شريعته ومنذ أن غلب الاستعمار الصليبي على دار الإسلام.

ولم يكن من المنطق أو من المعقول والمقبول الآن بعد أن تحررت بلاد المسلمين من هذا الاستعمار، أن ندع ديننا الشامل الكامل في عزلة تعبدية وننطلق إلى التشريع الفرنسي أو غيره نستمد منه القوانين، أو إلى النظريات السياسية الغربية أو غيرها نستمد منها نظام الحكم، أو إلى النظريات المادية تستمد منها نظام المجتمع[١]، متأثرين في هذا بأقوال أعداء أمة الإسلام بأن ديننا هو الذي

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، طبعة سادسة (ص١٧).

جر علينا هذا التخلف والجمود والضعف.

ولذا فقد أصبحنا في ذيل قافلة الحضارة، فإذا أردنا التقدم والحضارة والمدنية فعلينا أن نفعل كما فعل الغرب وأن نبعد ديننا عن منهج حياتنا كما فعلت أوروبا من قبل، ولم يفطن دعاة العلمانية إلى ظروف الغرب وظروفنا وتقاليد الغرب وتقاليدنا.

العلمانية بين الغرب والشرق

لم يكن عجبًا أن تجد العلمانية مكانها في الغرب نتيجة تسلط الكنيسة وتحالفها مع الظالمين على شعوب الغرب المختلفة ووقوفها في وجه كل تفتح فكري أو كشف علمي وتجاوزها ذلك الحجر على العقول إلى حجر أخطر على القلوب حين فرضت صكوك الغفران، وقرارات الحرمان، وراحت تتاجر بها وتتخذها وسيلة للكسب الحرام.

وغرقت أوروبا في دماء ضحايا الكنيسة حيث سقط المئات بل الألوف تحت مقاصل محاكم التفتيش ومشانقها غير من غيبوا في غياهب السجون.

وإذا كانت سنة الله في الكن أن لكل فعل رد فعل مساويًا له في القوة ومضادًا له في الاتجاه، فلقد وقع الصراع، صراع العلم مع الكنيسة وانتهى بإعلان العلمانية التي تعني فصل الدين عن الدولة، وتقلص سلطان الكنيسة داخل جدرانها[1].

وفضلاً عن أن ظروف أوروبا التاريخية كانت تبرر انتشار العلمانية وفصل الدين عن الدولة، فلقد كانت ظروف الديانة المسيحية بعدما أدخل عليها من تحريف كان اليهود وراء أكثره.

أقول... كانت ظروف الديانة المسيحية تسمح بوجود علمانية إلى جانب الدين.

وحين أريد نقل العلمانية إلى الشرق الإسلامي غفل المسخرون عن علم أو عن جهل غفلوا عن هذه الظروف جميعًا، غفلوا عن أنه ليس في ظروف الشرق

---

(١) انظر كتابنا العلمانية وأثرها في أوروبا.

الإسلامي ما يبرر فصل الدين عن الدولة؛ لأن الديانة الإسلامية لا تسمح بذلك؛ لأن الدولة في فقه الإسلام قسم للدين لا قسيم، فلا دين لغير دولة ولا دولة لغير دين.

كذلك لم تكن الديانة الإسلامية لتسمح بقيام العلمانية إلى جوار الإسلام بمقولة أن الإسلام يبقى داخل دائرة العقيدة والشعيرة، وتعمل العلمانية في دائرة الشريعة؛ لأن الإسلام عقيدة وشعيرة وشريعة وهو في هذا لا يقبل التجزئة ولا التفرقة ولا ترضي أن يكون مع الله جل جلاله أرباب آخرون أو قياصرة آخرون يدين لهم الناس في مجال الشريعة كما يدينون لله في مجال العقيدة والشعيرة[١].

ولهذا كله فشلت العلمانية في الشرق الإسلامي ولم يجن منها إلا الانحطاط الخلقي والتدهور الاقتصادي والتخلف الحضاري.

ولذلك رفضت جماهير الأمة الإسلامية كل صور العلمانية وتعالت صيحاتها القوية المتلاحقة أن عودوا إلى قرآن ربكم وسنة نبيكم لتعود لنا الحياة من جديد؛ لأن ضمائر الشعوب أدركت بحسها المرهف وضميرها الحي أن الإصلاح لهذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأن عقاب الله العادل للشعب المسلم المتمثل في الفقر والتخلف وضياع كرامة الإنسان كان نتيجة حتمية للانحراف عن منهج الله القويم، وأنه لن يرتفع هذا العقاب حتى يعود المسلمون إلى دينهم الحنيف، يلتفون حوله ويحكمونه في كل شأن من شئون حياتهم وفي كل أمر من أمور دنياهم، ويستضيئون بضيائه ويسيرون على نهجه وهداه ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، طبعة أولى، سنة ١٩٧٧م، د. علي جريشة وآخر، دار الاعتصام بتصرف (ص٦٠، ٦١).

موقف الإسلام من العلمانية

الإسلام يرفض العلمانية:

إن العلمانية التي ظهرت في ظروف خاصة، وحاصرت الدين في حيز ضيق، أو في ركن من أركان الكنيسة والتي عزلته تمامًا عن الحياة وتنظيمها -ولم تستطع القضاء عليه كلية- والتي نبتت شجرتها الملعونة في بيئة الغرب الملحدة، ثم تفرعت أغصانها تحمل ثمارًا مرة وفروعًا فاسدة، أفسدت حياة الغرب كله ولم يجن منها سوى أمراض مدمرة من الشذوذ الجنسي والهوس العقلي، والتوتر العصبي، والمرض النفسي والضياع الاجتماعي والتدهور الأخلاقي.

هذه العلمانية التي تعني فصل الدين عن الدولة وتجعل الحياة خاضعة لأهواء البشر وقوانين البشر وأخطاء البشر.

هذه العلمانية بكل صورها وفلسفاتها وفسادها ومفاسدها يرفضها الإسلام رفضًا قاطعًا، فإذا كانت العلمانية تبعد الدين عن الحكم فإن الإسلام ما جاء إلا من أجل الحكم.

ذلك لأن الإسلام ليس نظرية هندسية حسب المرء منها أن يفهم صحتها ويذكر أدلتها، أو فلسفة، عقلية يتسلى الإنسان بمطالعتها، ويدرسها إذا شاء لبعض عشاقها، بل هو منهاج استوعب كل التعاليم الروحية والعملية والعلمية وقدم للناس قواعد بينة للإصلاح العام تمس من قريب شئون الفرد والمجتمع والدولة والأمة.

ومن الذي يزعم أن دعوة إصلاحية تبتعد عن ميدان الحكم تزهد في الإفادة منه لمبادئها؟

إن الإسلام لو لم ينص على أنه دين يبغي السيطرة على الدولة، لما كانت هناك

غرابة -مع ذلك- لاتجاهه إلى الحكم ومحاولته أن يتسلم مقاليده ألا ترى الثورة في فرنسا؟

لقد قامت باسم الحرية والإخاء والمساواة، فلم تنفذ أغراضها بالتبشير والدعاية، ولكنها أسقطت الحكومة القائمة واستولت على زمام السلطة وباشرت تنفيذ مبادئها، واعتبر اتجاهها إلى الحكم بداهة لا تحتل جدلاً والثورة الدموية الحمراء التي اندلعت في روسيا وقامت على مبادئ ماركس لم يخامر أصحابها قط أن الحكم بالنسبة لأغراضهم نافلة وأن أفكارهم يمكن أن تعيش بعيدًا عن مراسيم السلطة ومظاهر القوة وهيمنة الدولة.

والإسلام -وهو تشريع رباني كامل- قد جاء بمبادئ أزكى وأطهر وانقى من المبادئ التي تمخضت عنها هاتان الثورتان، وسبل الإصلاح التي شرعها يجب أن تحفر مجاريها العميقة في حياة الإنسان وتاريخ الدنيا بالأسلوب نفسه الذي يتجه إليه دعاة الحق والخير في كل زمان ومكان، وهو ما حدث مع الرسول ﷺ صاحب هذه الشريعة فقد بدأ هاديًا ومبشرًا ونذيرًا وانتهى قاضيًا وقائدًا وحاكمًا بعد ما تحولت رسالته من طور الدعوة التي تطارد وتضطهد إلى طور الدولة التي تأخذ لربها ونفسها ما تريد.

والحكومة التي أقامها الإسلام حكومة فكرة معينة ومبادئ معينة وهي -في نظر نفسها وعند الناس- ممثلة هذه الفكرة وحاملة لوائها، وهي إذ تطلب التمكين في الأرض والاستيلاء على الحكم إنما تقصد إلى تحقيق مراميها ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [الحج: ٤١].

والدولة في الإسلام إنما تنهض على احتضان مبادئ الإسلام والعمل بها والدفاع عنها والدعوة إليها.

والهدف الأول لوجودها، تقديس عاطفة التدين واحترام حقوق الله وجعل كلمة الله هي العليا، والحفاظ على كرامة الإنسان وعلى سعادته وحريته الكاملة، وقد قام النبي ﷺ بمهام رئيس الدولة على هذا الأساس الواضح، وكذلك مضي على سنته الخلفاء الراشدون من بعده.

طلبوا الحكم ووصلوا إليه -لا لشيء من جاة الدنيا وزينتها- ولكن لله ولكتابه وابتغاء وجهه، وقد أفنوا أشخاصهم وأموالهم وأولادهم حتى قامت للإسلام حكومة ترعى عقيدته وتنفذ شريعته(١).

إن التعاون لا بد منه بين الدين والحكومة أو بين الدين والسياسة فالإسلام في جوهره أكثر من مجرد إيمان دين، إنه نظام حياة، يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية الدينية منها والزمنية.

فكما يجد الإنسان في الإسلام ما يشبع شوقه الروحي عن طريق الإيمان بالله تعالى والتعبد له بالصوم والصلاة والزكاة والحج، كذلك يجد فيه نظامًا من القيم الأخلاقية والشرائع المدنية التي تعطي أجوبة مفصلة عما يعترضه من مشكلات في المعاملات اليومية.

إن الإسلام نظام كامل يدعو إلى حكومة تلتقي فيها الحياة الروحية بالحياة الدنيوية، وبهذا المعنى فالإسلام نظام روحي ونظام زمني، كل منهما متصل بالآخر، مكمل له، فلا مجال للفصل بينهما.

ومن مبادئ الإسلام أن المسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين جميعًا أمة واحدة ذات رابطة روحية تستمد جذورها من التسليم بالله تعالى ربًا والاعتراف بأحكام شريعته وما تنص عليه من واجبات على المسلم نحو حقوق المسلم على

---

(١) من هنا نعلم، الشيخ محمد الغزالي (ص٢٢، ٢٤).

المسلم.

فالشريعة هي القاعدة التي يجب أن تتم على أساسها التعاملات بين المسلمين وتبنى عليها حياة المدنية بكاملها، كما أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب ديني، لأن وحدة الأمة روحيًا منوطة بوحدتها السياسية.

ولذلك فالأمة في الإسلام لا تكتمل ما لم تتجسد في دولة تتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب فرائض دينهم.

ولذلك ينبغي أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ليشرف على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحماية مصالح المسلمين ونشر الإسلام، والمدافعة عنه ضد أعدائه، ويجمع بين السلطتين الزمنية والروحية في خلافة تولي له على العموم بالمبايعة(١).

والخليفة ليس سوى خادم للأمة وراع لمصالحها، يحكم بشرع الله ولا يحيد عنه «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»(٢).

ولا بد للمسلمين من خليفة حاكم يحفظ المسلمين حقوقهم وأوطانهم فهو على حد تعبير الإمام النسفي في «العقائد»: «والمسلمون لا بد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم وإقامة حدودهم وسد ثغورهم وتجهيز جيوشهم وأخذ صدقاتهم، وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطرق وإقامة الجمع والأعياد وقطع المنازعات بين العباد».

---

(١) سقوط العلمانية، الأستاذ أنور الجندي (ص٣٥، ٣٦).

(٢) من خطبة الصديق ﷺ بعد توليته الخلافة.

يقول شارح «المواقف»:

بل نقول: نصب الإمام من أتم مصالح المسلمين وأعظم مقاصد الدين.

ويقول الإمام الماوردي: والإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا.

ويقول عضد الدين الأيجي:

إنا نعلم علماء يقارب الضرورة أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والجهاد والحدود وإظهار شعار الشرع في الأعياد والجمع إنما هو مصالح عائدة إلى الخلق معاشًا ومعادًا[١].

وها هو الشيخ محمد عبده ينص في كتابه «الإسلام والنصرانية» على أن أحد أصول الإسلام الأساسية الجمع بين مصالح الدين والدنيا والآخرة.

(١) الإسلام والخلافة في العصر الحديث، د. ضياء الدين الريس (ص٢٦١).

خصائص الحكومة الإسلامية

والحكومة الإسلامية لها خصائصها أو عناصرها الذاتية، فلا يمكن أن يقال إن أية حكومة من أي نوع -علمانية أو غيرها- يمكن أن تحل محلها، فهي تلك التي تقوم على الشورى في حكمها وفي مبادئها، وفي سيرها وقانونها هو شرع الإسلام.

والحاكم ليس إلا منفذًا للشريعة، والأمة هي صاحبة السيادة، ومصدر السلطان، الإمام ليس إلا وكيلاً عنها، وهي حكومة أو دولة غاياتها أخلاقية روحية تحكم بما أنزل الله وبما جاء به رسول الله، وهذا ما لا يتوفر في الحكم العلماني، ولذا فإن الإسلام -بكل المقاييس- يرفض حكم العلمانية بكل صوره وأشكاله.

إن القرآن الكريم -دستور المسلمين الخالد- كان يخاطب بتشريعاته الأمة الإسلامية كلها بجميع أجيالها وهي أمة متعينة بذاتها وأوصافها، فهي أمة ذات كيان سياسي واجتماعي منفرد.

يقول الله جل جلاله في حقها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] فهل يمكن تنفيذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون تعاون ونظام وولاة أمر وحكم قانون؟!!

وقد أمر الإسلام بالجهاد في سبيل الله، فهل من المستطاع أن يذهب كل فرد على حدته لقتال الأعداء؟

هل يقال إن الأمة نزلت عند حكم الله إذا أرسلت أبناءها فرادى قيامًا بواجب الكفاح المنشود؟ لا، وألف لا.

بل هناك تجنيد عام وقوى متساندة وقيادة منظمة ووسائل عرفتها الأمم بالبداهة، فكونت الجيوش ورسمت الخطط، وعلى الفرد أن يسلم نفسه في سنن معينة للدولة وهي تصنع به ما تشاء وتكلفه بما ترى.

وبذلك يكون قد أدى ركن الجهاد، ولو أدى هذا الواجب الاجتماعي بأسلوب فردى لفشلت الدولة في الدفاع عن نفسها، بل لفشل الفرد في العودة بنفسه سالمًا.

ومثل ذلك تكاليف الخدمة الاجتماعية التي تفرض على المرء من الزكاة والصدقات وما إلى ذلك.

إن الإسلام عقيدة وأنظمة وأعمال، ووظيفة الدولة محددة في القرآن والسنة تحديدًا لا يحتمل لبسًا.

ويوم يفقد الإسلام سيطرته على الحكم فستبقى الكثرة الساحقة من تعاليمه حبرًا على ورق، لأن تنفيذها عن طريق الفرد مستحيل وتنفيذها عن طريق حكومة علمانية أكثر استحالة.

وليست العبادات الاجتماعية هي التي ستشل وتذوي فقط، بل العبادات الشخصية من صلوات واستغفار وصيام وغير ذلك، إنها عندما تحرم كنف الدولة تنكمش وتموت! فكيف -إذا كان الحكم علماني- وتجهمت لها الدولة ونبذت ذويها وحرمتهم رعايتها...؟

إن وظيفة الحكم في الإسلام ليست إدارية فقط ولا قضائية فقط بل هي إدارية قضائية عبادية، تضم النواحي جميعًا في عروة لا تنفصم(١).

(١) من هنا نعلم، الشيخ محمد الغزالي (ص٥٥، ٥٦).

إن أكثر ما جاء في الإسلام من الأحكام لا يدخل تنفيذه -كما قلنا- ضمن اختصاص الأفراد، لأنه من اختصاص الحكومات، وهذا وحده يقطع بأن الحكم من طبيعة الإسلام ومقتضياته، وبأن الإسلام دين ودولة.

إن الذين يريدون أن يشطروا الإسلام، فيفصلوا بين عقيدته ونظام حكمه، إنما يريدون أن يفصلوا رأس الأمة عن جسدها، فالإسلام كل لا يتجزأ وبنيان واحد متماسك اللبنات، وإن انتزاع أي ركن من أركانه سيزلزله على رؤوس أصحابه جميعًا(١).

إننا لا نرضى بدولة علمانية، فشرع الله تعالى أحب إلى قلوبنا وعقولنا وأرعى إلى مصالحنا، وأدعى إلى سعادتنا من شرع الشرق والغرب معًا.

والله تعالى أعلم بشئون دنيانا وآخرتنا، وأعلم بما يصلح شئوننا وما يؤخذ بأيدينا نحو الخير والمجد والسؤدد ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

إن الإسلام -وهو وحي الله الخالق إلى الإنسان المخلوق- وما جاء به عن بيان الحقيقة الإنسانية ومقوماتها الفطرية، وكشف عن الحقيقة العليا التي تكمن وراء هذا العالم وما لها من صفات الجلال والكمال، وتقرير منهج الإنسان في الحياة بمختلف أبعادها بما يضمن للإنسان حريته ويحفظ عليه كرامته، كل ذلك وغيره من وضع رب السماء، إنه الوضع الإلهي المعصوم من الخطأ والانحراف، وتلك خصيصة كمال لم تتحقق ولن تتحقق لإنسان.

ومن هنا فقد انطلق الإسلام -وهو دين الفطرة- بالإنسان في مواجهة الحياة

---

(١) مؤامرة فصل الدين عن الدولة، للأستاذ محمد كاظم (ص١١٩)، دولة القرآن، طه عبد الباقي سرور (ص٦٢).

متخذًا من الإيمان بالله مرتكزًا قوية، ويقينًا خالصًا، فحول عقيدة الإيمان بالله تلتقي جميع أصول الإسلام وفروعه في جميع الحالات، وشريعة الإسلام وحدة متكاملة لا تنفصم عراها، ولا يكتفي ببعضها دون البعض الآخر، وذلك لأن الخروج على بعض أصول الشريعة الإسلامية إنما هو خروج على الدين كله، وحسبنا أن نعلم أن من استحل المنكرات واستباحها لنفسه فإنه يتساوى -في الكفر بالله- مع من ينكر الحدود الشرعية والعبادات الدينية، فالكل قد أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، ومن ثم فإنه يخرج من دين الله.

ومن هنا كان إنكار أصل من أصول العقيدة كفرًا بالله، وكان إنكار العبادات كفرًا بالله وكان رفض الحدود الشرعية أو إنكارها كفرًا بالله.

الإسلام وحدة متكاملة لا يتجزأ.

والإنسان وحدة متكاملة لا تتجزأ.

وما انحرف الماديون والعلمانيون إلا لأنهم قصروا النظر في الإنسان على جانبه المادي فحسب، واعتبروا الإنسان كتلة مادية، وما فيه من حياة روحية وعقلية ونفسية وشعورية كل ذلك إنما هو أثر من آثار المادية فقط.

أما الإسلام -وهو الوحدة المطلقة- فإنه ينظر إلى الإنسان على أساس من الوحدة الإنسانية المتكاملة، ومن ثم فإنه يعطي كل جانب من جوانبه ما يليق به، وما يناسبه من الاهتمام والتقدير دون أن يطغى بجانب منه حساب ما عداه من الجوانب الأخرى، ولذلك يكون الإسلام دين الشمول والكمال[(١)].

فكيف نترك دين الشمول والكمال ونبحث عن حكم علماني جاء لأوروبا

(١) الإسلام والتيارات المعاصرة، للدكتور عبد المعطي بيومي، وأحمد الشاعر، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩م، دار الطباعة المحمدية (ص١١، ١٢).

فأفسدها وقضى على طمأنينة أهلها؟

كيف نترك الإسلام الذي جاء ليخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله، ومن جور الحكام إلى عدالة القرآن، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم والإيمان، وأن الناس بنو آدم وحواء وأنهم جميعًا إخوة لأب وأم؟

الإسلام الذي حرر الفرد ضميرًا ووجدانًا وقولاً وعملاً وعقيدة في غير استهتار أو نزوات، وحرر الجماعات من رق الفوارق وسموم الحقد في غير صراع ولا شهوات، وحرر المحكومين من قبضة الحاكمين إلا بالعدل والحق فلا طاعة في معصية ولا استجابة في باطل، وحرر الأمم من شهوة الاستعمار، فلا عدوان ولا قتال للتملك والاستعلاء فإن بغت أمة على أمة ﴿ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الحجرات: ٩].

وحرر كل شيء سواء أكان ماديًا أم روحيًا بكلمة واحدة هي ميزان السموات والأرض وهي صلاة الناس وهي عدالة الخلق وهي عقيدة الدنيا وسبيل النجاح في الأخرى إنها كلمة: «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**».

الإسلام الذي جعل المال مال الله، وعباد الله مستخلفين فيه لخيرهم ولخير الناس وجعل الأرض لمن يفلحها ولمن يزرعها بنفسه فإن لم يفعل ثلاث سنوات فقد عطل مرفقًا عامًا ووجب أن تنزع منه وتعطى دون مقابل لمن يحييا ويزرعها.

الإسلام الذي جعل لكل إنسان بيتًا وزوجة وعملاً يتكفل أجره بحاجاته على السعة من كساء وغذاء ودواء من غير ضيق ولا عسر، فإن لم يجد فعلى بيت المال أن يقوم به وبأسرته حتى تدبر الدولة له عملاً فإن الحاكم مسئول عن أقوات الرعية.

الإسلام الذي جعل لكل جاهل معلمًا يعلمه، ولكل أعمى قائدًا يأخذ بيده،

وأمر أن تكون المكتبات في الحدائق العامة للناس جميعًا، حتى ينعم الشعب بصحة الجسد وصحة العقل.

الإسلام الذي جعل فريضة مقررة في بيت المال لكل مولود يولد في الإسلام ويمشي الأجر مع حياة الطفل صعودًا، حتى يبلغ أشده ويأخذ حظه من التعليم أو الصناعة أو التجارة أو الجندية وما إلى ذلك.

الإسلام الذي حدد وظيفة الحاكم فجعله راعيًا يسوس الناس لخيرهم ولإقامة شريعة ربهم، وهو بعد كأحدهم لا يجوز له أن يكون له في مطعمه وملبسه ومركبه أكبر مما يأخذ أواسط الناس، وجعل له على المسلمين الطاعة والنصح والعون ما دام على الصراط المستقيم، فإن انحرف فكتاب الله هو الفيصل والحكم، والإسلام الذي يدور تشريعه مع الحياة ومع الصالح العام في غير ضيق ولا حرج ولا تعنت ولا جمود.

فيقول قرآنه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

ويقول أحد أتباعه: «فأينما وجدت المصلحة فثم شرع الله»(١).

وحيثما وجد الضرر وقفت الحدود سدًا للذرائع(٢).

والله جل جلاله يحب لعباده الرحمة واليسر والسعة ويكره أن يصيبهم الضيق والضرر والشدة.

ولقد سن لهم الشرائع لتحقق لهم ما يحب ويرضى فشرائع الله تدور مع الخير

---

(١) الإمام الطوغي.

(٢) من أقوال المالكية.

واليسر: «أينما وليا وجهيهما».

كما يقول ابن القيم ورضوان الله ورحمته على أم المؤمنين عائشة إذ تقول: «ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما».

الإسلام الذي يحب العزة ويكره الذل، ويجعل الخير في اليد العليا ويكرم يد العامل لأنها يد كادحة صانعة حتى إن الرسول ليقول: «**إنها يد مباركة بارك الله فيها**» ويجعل من يهضم حقها أو يؤخر أجرها خصيمًا لله تعالى، كما يكره أن يرى إنسانًا فارغًا من عمل الدنيا أو عمل الآخرة، لأن الفراغ حليف الشيطان.

الإسلام الذي وحد البشرية كافة فلا ألوان ولا جنسيات ولا عصبيات بين الناس، بل الجميع سواسية، لا تفاضل إلا بالتقوى، وليست التقوى عبادة فحسب بل إن العمل الصالح في الدنيا الذي ينفع الناس ويدفعهم خطوات في طريق العلم أو في طريق الخير والرفاهية لهو من التقوى أيضًا.

الإسلام الذي يرقب صدور الناس وقلوبهم، كما يرقب أعمالهم وأفكارهم ثم لا ينظر إلى وجوههم وأموالهم لأنها ليست شيئًا في موازين الخير والإيمان إلا إذا اتجهت إلى خير الناس.

الإسلام الحضاري الرءوف الرحيم بكل ذي كبد حي، حتى لتدخل امرأة **الناس في هرة حبستها، فلا هي** أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش **الأرض، ويدخل الجنة رجل رأى** كلبًا ظامئًا في الصحراء فسقاه فغفر الله له فأدخله الجنة.

الإسلام الذي نهى عن القسوة أيًا كان موضعها حتى لينهى عن المثلة بالكلب العقور.

الإسلام الذي جهله أتباعه فنكثوا عهد الله وتخلوا عن رسالتهم العالمية

وأفسحوا الطريق للعلمانية أو غيرها، وأطفأوا أنوارًا أراد الله لها أن تضيء، وأغلقوا أبوابًا للخير كانت هدى ورحمة للعالمين[١].

لقد شمل الإسلام كل جوانب الحياة والكون والإنسان مع مجالاته المختلفة.

ففي مجال العقيدة:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وفي مجال الحكم:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وفي مجال السياسة:

يفصل القرآن الكريم مبدأ الولاء الذي هو مبدأ أساسي في سياسة الأمة الإسلامية فيقول:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ

---

(١) دولة القرآن، طه عبد الباقي سرور، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة (ص٢٤) وما بعدها.

ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وفي مجال الرأي وصنع القرار:

﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالشورى هي القاعدة التي ينطلق منها القرار ولأهمية هذه الشورى يجعلها القرآن أحد صفات المؤمنين التي لا تفارقهم فيقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧-٣٨].

فيقرن هنا الشورى بالصلاة والزكاة، فمنزلتها في حياة الأفراد المؤمنين وحياة أمتهم تجعلها الآية هنا بمنزلة الصلاة والزكاة[(١)].

ذلك لأن الشورى هي التي تجنب الأمة الحكم الفردي الدكتاتوري والحكم التعسفي الذي لا يسمع رأيا غير رأيه ولا يرى الحق إلا من خلال شهوات صاحبه.

وفي مجال المال:

يوضح الإسلام أن المال قوام الحياة في الأمة كلها، وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا ﴾ [النساء: ٥].

---

(١) العلمانية وتطبيقها في الإسلام، د. محمد البهي، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٠م، مكتبة وهبة بالقاهرة (ص١٦).

ما يقدم الدليل على وجوب الحجر على أموال السفهاء -وهم الذين ينفقون المال في محرم أو في غير موضعه- بسبب أن هذه الأموال وإن كانت ملكًا خاصًا للسفهاء لكنها العماد في حياة الأمة كلها ﴿ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ .

كما يوضح أن الملكية الخاصة للمال هي في واقع أمرها ملكية استخلاف وتفويض من الله جلت قدرته إذ يقول تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧].

وفي مجال الاقتصاد:

فإن الاقتصاد في الإسلام لا يقف عند حد العمل في الزراعة والتجارة وحدهما وإنما معهما الصناعة كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

كما تقوم المعاملة فيه على حرية العقد، والبعد عن الغبن فيه، ولو مترقبًا كالغرر، وتجنب الاحتكار كما هو مفصل في فقه المعاملات التجارية والزراعية.

وفي الجانب الاجتماعي:

يفرض الإسلام التكافل كعبادة وقربى إلى الله تعالى بسد حاجة المحتاج، والوقوف بجانب الغارم في سبيل مصلحة عامة أو تحت ظروف غير إرادية، وبمعاونة الإنسان على استرداد حريته واعتباره البشري، كحق طبيعي له، وبتعويض المدافع عن المثل العليا للمجتمع، كما جاء في تحديد مصارف الزكاة(١).

---

(١) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د. محمد البهي، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، مطبعة الأزهر، بدون تاريخ (ص٣٩).

وفي مجال الأسرة:

يحرص الإسلام على التضامن بين أعضائها:

أولاً: عن طريق الشورى والرعاية المتبادلة بينهم كمجموعة من المؤمنين لعموم قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] ولعموم ما جاء في الحديث الشريف: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**».

وثانيًا: بالتزام القادر من أعضاء الأسرة بنفقة الضعيف فيها لصغر في السن أو لشيخوخة فيه، أو لعجز، أو لحائل يحول دون العمل والسعي في سبيل الرزق.

وثالثًا: بإسناد أمر التوجيه وتنفيذ ما استقر عليه الأمر إلى الرجل كزوج أو أب: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

فقوامة الرجل في إرادته والتنفيذ معًا، وفي قدرته وطاقته على السعي في سبيل الرزق والعيش، وهي إرادة وطاقة من طبيعته الخاصة التي لم يخلق لها ثديان، ولا تتعرض طول حياتها للحمل والولادة.

والإسلام كدين، يفخر بالحفاظ على وحدة الأسرة لا لأنه يميل إلى النظام القبلي أو هو قائم عليه -كما قد يدعى- ولكن لأن وحدة الأسرة هي القوة الأولى في المجتمع الإنساني في تماسكه وبقائه.

وفي الوقت الذي تعيب فيه بعض النظم العلمانية على الدين -كدين- العناية بأمر الوحدة في الأسرة في الدين -وهي وحدة طبيعية- تسعى هذه النظم إلى خلق وحدة عوضًا عنها من خلية جماهيرية لا تعدو الصلة بين أعضائها أن تكون الدافع إلى ما يسمى بالتلاحم هو تلاحم بدني يبقى ما بقيت القوة في الدفع نحوه.

ولكنه سرعان ما يتبدد إذا ضعف الدافع والممسك به، لأن الرباط عن طريق

الفكر المادي يبقى في حدود الأنانيات، ويستحيل عليه أن يصهرها في وحدة جماعية نفسية.

وفي مجال التوجيه:

لا يرى الإكراه، ولا ما هو متنافر مع طبيعة الإنسان من عوامل التوجيه له، إنه لا يلزمه بأمر ما، وإنما يضع أمامه الدعوة إلى مبادئه، وله مطلق الحرية، والمشيئة في الإيمان أو عدم الإيمان بها ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

فإن آمن فهو يلتزم من ذاته بما آمن به في التوجيه، والسلوك، والمواقف، فلا يلزمه تتبع البوليس -ولا إرهاب الأجهزة السرية الأخرى- ولا سلطة القانون، ولذا فالدولة في الإسلام دولة إنسانية أخلاقية، وليست دولة بوليسية[١].

وفي مجال العمل في سبيل الرزق:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

إن الإسلام قد صنع لنا حضارة لم يشهد التاريخ لها نظيرًا وهو قادر على صنعها مرة أخرى لو وجد أممًا تحكم به وتعمل به وتسير على نهجه وهديه وهداه.

يقول الفيلسوف المسلم محمد إقبال وهو يخاطب الجماهير الإسلامية: «إن

---

(١) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د. محمد البهي، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، مطبعة الأزهر، من غير تاريخ (ص٤١، ٤٢).

الدين الذي تحملون رايته يقرر قيمة الفرد ويربيه تربية تجعله يبذل كل ما عنده في سبيل الله وفي صالح عباده، إن مضمرات هذا الدين القيم وكوامنه لم تنته بعد، إن في استطاعته أن يوجد عالمًا جديدًا يحيى فيه الفقراء أغنياء، لا يقوم فيه المجتمع على مساواة البطون، بل يقوم على مساواة الأرواح»(١).

ويقول إميل درمنجم:

الإسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية لا صلة لها بالمادة ولا بالحياة، وإنما الإسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح والدنيا والآخرة، جسم وروح ودولة ودين وحياة وغيب، الإسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيدًا لنظريات الاجتماع الحديثة، بل لأنه يدفع الإنسان دومًا إلى الأمام(٢).

ويقول هانوتو المستشرق الفرنسي:

إن الإسلام دين وسياسة وأن شعور المسلمين بهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة الوطنية، فالوطن عندهم هو الإسلام وهم يقولون:

إن السلطة مستمدة من الألوهية، فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون(٣).

ولهذا فقد اختار الله تبارك وتعالى الإسلام لنا دينًا وطريق هداية ومنهج حياة وسلوك: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

إن الدين الحق لا يمكن ابتداء أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة فالالتزام

---

(١) نقلاً عن: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، للندوي (ص٩١).
(٢) سقوط العلمانية، الأستاذ أنور الجندي (ص١٩٦).
(٣) الحلول المستوردة، د. يوسف قرضاوي (ص٤٧).

بالشريعة -في دين الله الحق- هو مقتضى العقيدة ذاتها، مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، بحيث لا تكون الشهادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى وهو الالتزام بما جاء من عند الله والتحاكم إلى شريعة الله ورفض التحاكم إلى أي شريعة سوى شريعة الله[١].

(١) مذاهب فكرية معاصرة، الأستاذ محمد قطب، طبعة أولى سنة ١٩٨٣م، دار الشروق، بيروت (ص٤٥٧).

الإسلام والمادة

وإذا كانت أوروبا اعتمدت في نهضتها على المادة فقط، فإن الإسلام لم يهمل المادة، وإنها معًا.

لقد اهتم الإسلام بالمادة اهتمامًا كبيرًا، فلم يهمل واقع الأرض، ولم يهمل عالم المادة والتاريخ هو الدليل وهو الشاهد.

لقد نشأ الإسلام في البادية العربية، في بلاد لا تعرف الحضارة المادية إلا القليل الذي يهبط عليها من أصقاع الأرض، من القوافل الغادية والرائحة، ولا تهتم هذه البادية إلا بالشعر والحروب القبلية، لا تفكر في علم ولا اختراع ولا بحث تجريبي ولا تفكير نظري.

لكن الإسلام بعثها بعثًا عنيفًا متدفقًا كأنها هي سيل ينحدر من ارتفاع شاهق فيملأ السهول والوديان، بعثها فإذا هي تنشط في كل ميدان من ميادين النشاط البشري في العلم والعمل في الحرب والسياسة في الفقه والتشريع.

وما أسرع ما وقع المسلمون على علوم الأغريق والمصريين والهنود من طب وفلك وطبيعة وكيمياء ورياضيات فنهلوا منها في نهم وانطلقوا يضيفون في كل فرع منها إضافات حية أصلية، تقدمت بالمعرفة الإنسانية أشواطًا هائلة وعاها التاريخ ووعتها أوروبا بصفة خاصة.

إذ قامت كل نهضتها الحديثة عليها، وإن كانت الخسة قد أدركتها فتنكرت للمسلمين الذين تتلمذت على أيديهم في الأندلس وغير الأندلس، وراحت تحاربهم وتجليهم من الأرض ثم تستغلهم أبشع استغلال.

والمذهب التجريبي الحديث الذي قام عليه كل العلم الأوروبي هو -باعتراف الأوروبيين أنفسهم- تراث إسلامي أصيل.

يقول هـ. ر. جب في كتابه «الاتجاهات الحديثة في الإسلام»:

اعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة وأنه عن طريق هذه الملاحظة وصل المنهج التجريبي إلى أوروبا في العصور الوسطى، وفي ذلك الاعتراف ما يكفي لإثبات جهد المسلمين الملموس في ترقية العلوم -نظريها وتجريبيها- وقت أن كانوا مسلمون.

ولكن هذا التقدم المادي -الذي قطعوا فيه أشواطًا عظيمة- لم يفتنهم قط ولم يخرج بهم عن إنسانيتهم وتلك مزية الإسلام.

إن المسلمين لم يفتنهم التقدم المادي فينقطعوا عن الله ومنهجه وعبادته والسير على هداه، لم يفتنهم فينقطعوا عن عالم الروح، ولم يفتنهم فيستغلوا علمهم في سبيل الشر، لم يفتنهم فيحولهم إلى المادية الكريهة التي تسيطر اليوم على الغرب كله، لم يفتنهم فينبذوا أخلاقهم جانبًا بحجة أنهم تقدميون، بل سار العلم في ظلال العقيدة يكشف ويصل كل يوم إلى جديد وهو ماض في طريق الخير لأنه سائر في طريق الله.

وإذا كانت الفلسفة العلمانية والنظرة المادية للكون والحياة قد أوجدت هذا العداء الرهيب بين الغرب وبين الله، وبين العلم والدين، فرأينا التنكر لله ورأينا الإلحاد ومعاداة الدين وعزله عن الحياة ومهاجمته والسخرية منه وأن لا إله والحياة مادة فإنه لا يوجد في حياة المسلمين تلك النفرة الكريهة بين الله الخالق والمسلم المخلوق.

لقد أثرت في لا شعور الأوروبيين تلك الأسطورة اليونانية النكدة أسطورة «برومثيوس سارق النار» فشكلت مشاعرهم تجاه الله سبحانه وانحرفت بهم عن

منهجه وهداه.

وهذه الأسطورة تصور العلاقة بين البشر والآلهة، علاقة صراع دائم وضغينة وأحقاد، علاقة لا ترى فيها مشاعر الرحمة أو العطف أو المودة ولا يهدأ أوراها حتى يشتعل من جديد.

والمعركة قائمة على النار المقدسة نار المعرفة البشر يريدون أن يستولوا على هذه النار المقدسة ليعرفوا أسرار الكون كلها، ويصبحوا آلهة والآلهة تنكل بهم في وحشية وعنف لتنفرد وحدها بالقوة وتنفرد دونهم بالسلطان تلك إذن طبيعة العلاقة بين البشر والله العلاقة التي اندست في أوهام الأوروبيين وصارت تصرف أفكارهم بغير وعي.

العجز وحده هو الذي يخضعهم لمشيئة الله وهم غير راضين عن هذا العجز ولا ساكتين عنه، فهم في محاولة دائمة يطلبون القوة ويطلبون المعرفة، يحاولون دائمًا أن يقهروا هذا العجز أو يقهروا بلغتهم -الطبيعية- أو بلغتهم اللاشعورية أيضًا ينتزعوا الأسرار، ينتزعوها من الإله الوثني القديم الذي كانوا يحاولون أن ينتزعوا منه ناره المقدسة.

وبهذا الدافع الخفي المطبوع في أعماق النفس الغربية -في أعماق اللاشعور- يحس الغربيون أن كل خطوة يخطوها العلم ترفع الإنسان فوق نفسه درجة وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر، وتظل المعركة هكذا دائرة كل فتح جديد من فتوحات العلم يخفض الإله، ويرفع الإنسان حتى تأتي اللحظة المرقوبة التي يتأله فيها هذا الإنسان.

يقول «جوليان هكسلي» في كتابه «الإنسان في العالم الحديث»:

كان الإنسان يخضع لله بسبب الجهل والعجز، والآن بعد أن تعلم وسيطر على

البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله ويصبح هو الله[١].

وفي أوروبا تسيطر فيها العلم المنقطع عن الله، والمادة المنقطعة عن الروح أحدث التقدم المادي الضخم انقلابًا خطيرًا في كيان الإنسان، انقلابًا أدى به إلى أن يكون آلة حيوانية تعمل كالآلات.

أما العلاقة الدائمة بين العبد وخالقه في الإسلام فهي علاقة المودة والحب والتطلع والرجاء.

والبشر لا يحتاجون إلى أن يصارعوا الله جل جلاله ليحصلوا على المعرفة فهو سبحانه وتعالى قد أعطاها لهم، واهبًا منعمًا فياضًا بالخير والإحسان، إنه جل وعلا هو الذي وهب للناس ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَـٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾.

وهو الذي: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولاً فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

وهو الذي: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ﴾.

وهو: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

وهو الذي فصل بين مستوى الخالق ومستوى المخلوق فصلاً تامًا ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٌ﴾، ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَـٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَـٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ فلا يختلط الإنسان في خطئه وصوابه بالله تعالى في قدسيته وحكمته وعلمه.

---

(١) نقلاً عن مذاهب فكرية معاصرة، الأستاذ محمد قطب، طبعة أولى سنة ١٩٨٣م، دار الشروق، بيروت، (ص٤٦٠).

ومن هنا فإن الرد على هذه المواهب والنعم التي أسداها الخالق للمخلوق هو الشكر والوفاء والمودة والمحبة والسجود له والخضوع لعظمته وليس العصيان والكفران[(١)].

فليس لدينا إذن سبب واحد لتنحية الإسلام عن المجتمع، لا من طبيعته الخاصة ولا من ظروفه التاريخية، كالأسباب التي لازمت المسيحية في أوروبا فعزلت الدين عن الدنيا، وتركت للدين التهذيب وتطهير الوجدان، بينما تركت للقوانين الوضعية تنظيم المجتمع وتسيير الحياة.

كذلك ليس لدينا أسباب حقيقية للعداوة بين الإسلام والكفاح لتحقيق العدالة الاجتماعية في حدود المنهج الإسلامي والشريعة الإسلامية كالتي لابست العداوة بين المسيحية والعلمانية.

فالإسلام يفرض قواعد العدالة الاجتماعية ويضمن حقوق الفقراء في أموال الأغنياء ويضع للحكم والمال سياسة عادلة، ولا يحتاج لتحديد المشاعر ولا دعوة للناس لترك حقوقهم على الأرض وانتظارها في ملكوت السموات، بل إنه لينذر الذين يتنازلون عن حقوقهم الشرعية -تحت أي ضغط- بسوء العذاب في الآخر ويسميهم ظالمي أنفسهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧] ويحرضهم على القتال لحقهم «من قتل

---

(١) منهج التربية الإسلامية، طبعة أولى سنة ١٩٨٠ دار الشروق، للأستاذ محمد قطب، (٢/ ١٢٠) وما بعدها بتصرف.

دون مظلمته فهو شهيد»[١].

فإذا اضطرت أوروبا لتنحية الدين عن حياتها العامة، فلسنا بمضطرين أن نجاريها في هذا الطريق[٢].

لقد أثبتت التجارة وشهد الواقع أن النظم الوضعية والنظريات والمذاهب السياسية التي سارت عليها حياتنا قد فشلت فشلاً ذريعًا، وساءت في ظلها الأحوال، وفسدت الأوضاع واختل ميزان المجتمع وتزعزعت القيم والأخلاق وأصيبت الحياة كلها بالاضطراب والتعفن والعطن.

لم تستطع هذه القوانين الوضعية أن تحقق التقدم المنشود للبلاد وأن تسير بالنهضة في طريقها الصحيح.

ولذلك فإننا ننادي بأن نعود إلى الدين الذي أصلح حياة المجتمعات التي عانت من مفاسد الجاهلية الأولى كي يصلح حياتنا ويسعد مجتمعاتنا، ولا سيما وتحكيم شريعة الله تعالى والسير على منهجه وهداه مطلب شعبي عام، وقبل هذا المطلب هو أمر من خالق الكون سبحانه وتعالى.

وإن كان عند بعض الناس شك في أن الإسلام أصلح الحياة يوم أن ران عليها التعفن والجمود وظهر الفساد في البر والبحر، فإننا نقدم لهؤلاء القلة شهادة رجل معاصر، يوضح ماذا فعله رسول الإسلام في العالم كله وقت ظهور فجر الإسلام.

يقول ع. هـ ديتسون في كتابه «العواطف كأساس للحضارة»:

ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من

---

(١) رواه النسائي.

(٢) العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب (ص١٦).

الفوضى؛ لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها، وكان يبدوا إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب وتتناحر، لا قانون ولا نظام.

أما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل الفرقة والانهيار بدلاً من الاتحاد والنظام، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه[(١)].

وإذا كانت هذه شهادة رجل معاصر، فإن هناك شهادة قديمة تحدث بها جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي وصور فيها حالة الجزيرة العربية وبين فضائل الإسلام حيث قال:

كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف حسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لتوحيده[(٢)] ... إلخ

فهل هناك بعد ذلك كله شك في أن الإسلام هو المنهج الذي يصلح كل زمان ومكان؟

---

(١) نقلاً من كتاب الإسلام والنظام العالمي الجديد، تأليف مولاي محمد علي، وترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار.

(٢) انظر سيرة ابن هشام وفجر الإسلام لأحمد أمين (ص٧٦) مطبعة النهضة المصرية، الطبعة الحادية عشر، سنة ١٩٧٥م.

وهل يكون -بعد ذلك- من المعقول أو المقبول أن تسقط راية الحكم الإسلامي ونرفع أعلام العلمانية السوداء المهلهلة؟

إن الطريق واضح، والحق أبلج، والتاريخ خير شاهد على حضارة صنعها ديننا العظيم كانت غرة في جبين الحضارات قاطبة.

فلنحكم بما أنزل الله ولنتبع تعاليم الإسلام ولا نتبع الهوى والشيطان فالله جل جلاله يقول: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والرسول ﷺ يقول: «**تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**».

وإذا كانت النهضة الأوروبية قد اقترنت بالعلمانية بل وارتكزت عليها بعد أن اقترن انحطاطها بهيمنة الدين والكنيسة على الدولة والمجتمع فإن مسيرة حضارتنا الإسلامية قد كانت في هذا الأمر على العكس والنقيض.

فلقد اقترنت النهضة الإسلامية بهيمنة الشريعة الإسلامية على الدولة المدنية الإسلامية، على حين كان الانحراف عن «إسلامية القانون» بداية طريق أمتنا إلى عصور الجمود والانحطاط[(١)].

إننا نريد أن نرفع راية الإسلام وأن نسير تحت ظلها الوارف من جديد نريد أن يتوافق المسلمون مع دينهم ومصلحتهم، كما يتوافق اليهود مع دينهم ومصلحتهم، وكما يتوافق الماركسيون مع مذهبهم ومصلحتهم، وكما يتوافق الغرب مع عقائده ومصالحه.

---

(١) العلمانية ونهضتنا الحديثة، د. محمد عمارة، طبعة أولى سنة ١٩٨٦م، دار الشروق (ص٢٩).

إن المسلمين وحده هم الجبهة المفككة روحيًا ومادية، الحافلة بالتناقضات المتعثرة الخطى، وكيما يزول هذا الوضع المستنكر الكريه، يجب أن نبصر الحقائق التالية ونتجاوب مع وحيها الحاسم يجب أن تزول الفجوة التي بيننا وبين الإسلام، وأن تقف فورًا الحرب الفاجرة المعلنة على تعاليمه وأشياعه.

لقد تضافرت جهود ضخمه لسحق الدين ومحو آثاره النفسية والفكرية، فضاع الإسلام من قلوب كثيرة وشبت أجيال لا إيمان لها ولم يستطع فكر آخر أن يشغل مكان العقيدة المضطهدة.

فلما خلا المجتمع العربي والمسلم من الإيمان الحي انهارت الأخلاق، وعربدت الشهوات وطغت الآثرة... والمجتمع الذي خلا من العقيدة لا يصلح أبناؤه في حرب ولا في سلام مهما يزعم لنفسه من تقدم.

بل إن أصحاب العقائد الوثنية يستطيعون سبقه في ميدان الإنتاج والنيل منه في ساحات الوغى إن المسافة لا تزال بعيدة بين المسلمين ودينهم عمليًا وعلميًا.

وفي مراحل هذا البعد تجد العلمانية والمذاهب المناوئة والأعداء المتربصون ألف ثغرة وثغرة للنفاذ إلى قلب العالم الإسلامي ولا سبيل لصد عداوتهم غير الانضواء تحت راية الدين وحكمه[1].

إن الإسلام لو ظهر في أوروبا أو بعبارة أدق لو طبق منهج الإسلام في أوروبا ما نشأت العلمانية في الفكر الأوروبي، وما وصل تفكير بعض المفكرين إلى التطرف في المادية والجنوح إلى شحن النفوس بالأحقاد ودفعها إلى الانقلاب الدموي لحل بعض المشاكل الاجتماعية.

---

(١) الإسلام ومشكلات العصر، الدكتور مصطفى الرافعي، طبعة أولى، سنة ١٩٧٢م، دار الكتاب اللبناني، بيروت (ص١٠٥، ١٠٦).

فالإسلام هو الدين الذي يقدم المنهج الصحيح للحياة، فلا هو دين أخروي بحت يهمل الحياة الدنيا ولا هو الدين الذي يفرض السلبية الكاملة على الإنسان ويفرض عليه الخضوع للأمر الواقع وعدم التفكير في تغييره.

إن هذا الدين الذي يعطي التوازن الصحيح بين الدنيا والآخرة وبين العبودية الكاملة لله والإيجابية السوية للإنسان هو الدين الصحيح الذي تصلح به الحياة في الأرض وتستقيم به خطى البشر في الحياة الدنيا(١).

ومن هنا فلا بد من تحكيم هذا الدين في كل أمر من أمورنا ولا بد من إقصاء العلمانية أو غيرها -من كل ما لم يأمر به الله- من حياتنا وتطبيق شريعة الله الخالدة كي تستقيم مجتمعاتنا ويرضى الله عنا.

ولا يحق -بعد هذا كله- لأحد أن ينادي بتطبيق مناهج البشر ولا أن يرفع راية العلمانية.

فإن طلب حاكم تطبيق العلمانية في مجتمع إسلامي، فذلك لعدم أهليته للحكم وللهرب من المسئولية التي يلقيها الإسلام على الحاكم كحاكم في طلب الاستقامة في السلوك وأداء أمانة الحكم والعدل والشورى المتبادلة والرعاية وليس التسلط والقهر والجبروت.

وإن طلب ذلك مفكر فالقصور في معرفة الإسلام وخداع نفسه وغيره يعرض قضايا يدرك أطرافها فقط دون جوهرها وغايتها.

وإن طلب سياسي تطبيق العلمانية فذاك لأنه يريد التلاعب بالفكر غير

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي، فصل التوازن، محمد قطب (ص٤٥٦، ٤٥٧)، مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب، طبعة أولى، سنة ١٩٨٣م، دار الشروق، بيروت.

الناضج والتمويه في حلبة المنافسة والسياسة، فإن الغاية -عند القوم- تبرر الوسيلة.

وإن فعل ذلك فتى أو فتاة فذلك للتحلل من التزام الإيمان في التوجيه والسلوك، والانطلاق في شهوة البطن والفرج والملبس[(١)] والسير تحت راية المادية والتمتع بشهواتها، والاندفاع فيها، فهو ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

(١) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د. محمد البهي، (ص٥٤) بتصرف.

انهيار أساس العلمانية

لقد قامت الفلسفة العلمانية على أكتاف المذهب المادي المعارض لمفاهيم الدين وعلى عكسها تمامًا.

ومن المعروف أن المذهب المادي يرى أن الوجود قديم وأن المادة هي مصدر كل كائن، وأن لها خصائص ونواميس عامة لا أثر للتدبير فيها.

ولقد قال دعاة المادية: إن ما أتت به الأديان من وجود مدبر حكيم وراء هذا العالم هو من الزخارف الكلامية التي ولدها الخيال وتمسك بها الجهال، وأن الذين يقومون عليها رجال لهم مصالح ذاتية وتقاليد وراثية.

وقد أعلنت الفلسفة المادية اعتمادًا على بعض النظريات العالمية أن المادة لا تنقسم إلى ما لا نهاية بل تقف عند الجوهر الفرد، غير أن العلم لم يلبث أن تخلى عن هذه النظرية بعد أن اكتشف أن الذرة قابلة للتجزئة، وبذلك سقطت النظرية المادية نتيجة ذلك سقوطًا شنيعًا، لقد تعثر مفهوم المادة القديم وأصبحت المادة طاقة.

لقد أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة وأن ما أسموه الجوهر الفرد ليس إلا «فرض» من الفروض التي قدمها العلم في فترة من فترات البحث.

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني:

إن أخطر النتائج العلمية التي نشأت عن التقدم في البحوث الفيزيقية هو إفساح المجال للحرية حتى في عالم الفيزيقا وهو أول درجة من درجات المادة، ذلك أن الطاقة التي تتبدد من الذرة عند انغلاقها فتذهب يمينًا أو شمالاً لا يمكن تحديد مسارها.

وقد كانت معارضة المادية القديمة للأديان من هذا الوجه، نعني من جهة القول بالحتمية المستمدة من طبيعة الأشياء، حتى ذهب غلاة المادية إلى القول بأن المادة هي كل شيء وهي أصل العقل والشعور، وليس العقل إلا إفرازات المخ، كما تفرز الكبد الصفراء.

وقد قال العلامة هالدين في كتابه «المادية»:

لقد ماتت النظرية المادية بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونات موجبة وإليكترونات سالبة، وطغت عليها نظرية الكوانتم التي تقول:

إن الكهربائية تجيء شحناتها من المجهول وتذهب إلى المجهول، إن نظرية الكوانتم قد قضت قضاء مبرمًا على النظريات الميكانيكية.

ومن هنا لم يعد المذهب المادي هو كل شيء في هذه الحياة، إن الحقيقة التي ظل الإنسان يبحث عنها دهورًا مديدة روحانية في جوهرها والروح لا يدركها العقل.

ولا ريب أن العقول بإنكار عالم الميتافيزيقا: عالم ما وراء الطبيعة لم يقل به العلم، وإنما قال به الفلاسفة الماديون وحدهم، ذلك لأنه المنطق الوحيد إلى الغاية التي قامت على نظريات ومذاهب مختلفة، منها المادية الجدلية، والمادية التاريخية[١].

وإذا كانت المادة قد انهارت فإن كل مشيد عليها سوف ينهار، ستنهار العلمانية وتتساقط أعلامها وتتهاوى أنظمتها ويتبدد ظلامها أمام شمس الإسلام وهي تشرق من جديد يتقدمها موكب النور يخط على جبين حياتنا مبادئ الإسلام

---

(١) الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام، الأستاذ أنور الجندي، دار الاعتصام (ص١٩، ٢٠).

ويرسى -في مجتمعاتنا- نظامه الحنيف وتشريعاته السامية وينشر -بيننا- الحق والعدل والأمن والسلام ليعيش الناس أخوة متحابين يرددون قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩].

هذا وبالله التوفيق،

المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. بعض كتب الصحاح.

٣. التبشير والاستعمار في البلاد العربية، د. مصطفى الخالدي وآخر، المكتبة العصرية، بيروت.

٤. الرسالة الخالدة، د. عبد الرحمن عزام، دار الشروق.

٥. الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين، المكتب الإسلامي.

٦. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين.

٧. الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة.

٨. المجتمع الإسلامي، د. أحمد شلبي، النهضة المصرية.

٩. المسلمون في معركة البقاء، د. عبد الحليم عويس، دار الاعتصام.

١٠. الغارة على العالم الإسلامي، أ. ل. شان ليه، ترجمة محب الدين الخطيب، مكتبة أسامة بن يزيد، بيروت.

١١. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر.

١٢. الغرب والشرق الأوسط، تعريب نبيل صبحي.

١٣. التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني.

١٤. المادية التاريخية، تأليف ف. كيلي. م. كونا ليرون، ترجمة أحمد داود، دار الجماهير، دمشق.

١٥. المذاهب الاقتصادية الكبرى، تأليف جورج سول، ترجمة راشد البداوي.

١٦. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي.

١٧. العلمانية والإسلام بين الفكرة والتطبيق، د. محمد البهي، طبعة مجمع البحوث.

١٨. الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، للندوي.

١٩. الرجل الصنم، تأليف ضابط تركي سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، طبعة أولى، سنة ١٩٧٧م.

٢٠. الإسلام وأصول الحكم، الشيخ علي عبد الرازق.

٢١. الإسلام والخلافة في العصر الحديث، د. ضياء الدين الريس.

٢٢. الدين والدولة في الإسلام، د. مصطفى السباعي.

٢٣. الإسلام على مفترق الطرق، د. محمد أسد.

٢٤. القانون الإسلامي وطرق تنفيذه، المودودي.

٢٥. الإسلام قوة الغد العالمية، تأليف بول شمتز ترجمة د. شامة.

٢٦. العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب.

٢٧. العلمانية ونهضتنا الحديثة، د. محمد عمارة، دار الشروق، سنة ١٩٨٦م.

٢٨. الإسلام والنظام العالمي الجديد، تأليف مولاي محمد علي، ترجمة السحار.

٢٩. إطار إسلامي للفكر المعاصر، أنور الجندي.

٣٠. حاضر العالم الإسلامي، للسير تيودور ملستون.

٣١. حصوننا مهدمة من داخلنا، د. محمد محمد حسين.

٣٢. فجر الإسلام، أحمد أمين.

٣٣. ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، د. عبد الحليم عويس، النادي الأدبي، الرياض، سنة ١٩٧٩م.

٣٤. دعوة إلى الإسلام، محمد الفضالي.

٣٥. دولة القرآن، طه عبد الباقي سرور.

٣٦. سيرة ابن هشام، لابن هشام.

٣٧. سقوط العلمانية، أنور الجندي.

٣٨. لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عودة الخطيب.

٣٩. من هنا نعلم، الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة.

٤٠. موقف العقل والعلم والعالم عن رب العالمين، مصطفى صبري.

٤١. مؤامرة فصل الدين عن الدولة، محمد كاظم حبيب.

٤٢. مستقبل الثقافة في مصر، د. طه حسين.

٤٣. منهاج الحكم في الإسلام، محمد أسد، ترجمة منصور محمد ماضي.

٤٤. مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، دار الشروق.

٤٥. منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق.

٤٦. طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، أنور الجندي.

٤٧. يوم الإسلام، أحمد أمين.

٤٨. الإسلام ومشكلات العصر، د. مصطفى الرافعي.

٤٩. خصائص التصور الإسلامي، د. محمد قطب.

٥٠. الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام، أنور الجندي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة